حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

الشمعة

أردتَ أم لم ترد، قدركَ أنْ تشتعل...
كالشمعة اشتعل، ثم أَنِرْ
حواشي الليل، وأمواج الدجى،
وهذا العالم المنكوس في قيعان الظلام،
أَقِمْه من جديد...
واغسلْ الهموم، وأطفئ لظى القلوب!..



الافتتاحية

أقلام وثغور

يظل "كولن" في حالة مرابطة دائمية على أحد أخطر الثغور التي يمكن أن يلج منها الأعداء إلينا، وهذا الثغر هو ثغر الفكر والقلم. فلازلنا نقرأ له على الصفحات الأولى من "حراء" في كل عدد فكراً استنهاضياً مشبعاً بروحانية عذبة.. فمقالة اليوم "ونحن نبني حضارتنا" عبارة عن صرخة روحية وفكرية تهزُّ العقول وتثير غيرة النفس والوجدان على حضارة عملت فيها معاول الهدم عقوداً كثيرة من السنين. فـ"كولن" في هذا المقال يرسم خارطة هذا البناء ويضع القواعد والأسس التي يأمل أن يقوم عليها صرحها العتيد..

أما الأستاذ "الشاهد البوشيخي" ذلك القلم المغربي ذي الثقل الفكري والأكاديمي، فيحدثنا عن "الإنسان" مختزلاً إياه في عنوان مقاله "الإنسان خُلُق وعمل". فالخُلق والعمل قيمتان إنسانيتان حضاريتان متلازمتان، يغيب أحدهما إذا غاب الآخر، ويحضر إذا حضر الآخر.. والموسوعي الكبير الدكتور "محمد عمارة" فيحدثنا عن الفكر الموسوعي في الحضارة الإسلامية، وعن أثر الإسلام في تشكيل العقل الموسوعي عند المفكرين من علمائنا الموسوعيين..

أما "آخر حرّاس الأقصى" فهي قصة قصيرة واقعية وحزينة ومؤثرة وتكاد تكون من نسج الخيال، وهي تشير إلى مجد عظيم لدولة بني عثمان طويت صفحاته، وكان من آخر صفحاته هذا الجندي العثماني الصلب الذي ظلّ ملازماً مكانه امتثالاً للواجب المقدس وطاعة لضابطه الذي أمره بالوقوف في باحة الأقصى حارساً بينما الجيش ينسحب من المكان..

ولا يفوتنا أن نذكر بالبحث القيم على صفحات "حراء" وهو بقلم الأستاذ "البوطي" متحدثاً فيه عن أحد أعلام دعاة "دمشق" الشيخ "حسن حبنكة الميداني"، الذي كان عالماً غزير العلم، وغزارة العلم تعني عند "البوطي" صفتين من صفات العلماء الكبار هي العمق والاتساع. رحم الله الفقيد وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء..

ومَن أراد أن يتعرف على صفات "المجانين" الذين تضرع "فتح الله كولن" إلى الله تعالى أن يمنحه قلة منهم، فاليقرأ مقال "هؤلاء المجانين" لـ"أديب إبراهيم الدباغ". فهم شباب تحترق أكبادهم بالوجد الإلهي، لا يستقر بهم مقام ولا يأنسون بحال، يسابقون الزمن ويختصرون المسافات، لا يتعبون ولا يملون ولا يركنون لراحة...

وفي خاتمة هذا الاستعراض لبعض مقالات هذا العدد من "حراء"، نشير إلى أن هذه الأقلام المباركة التي نقرأ نتاجاتها على صفحات "حراء" في هذا العدد وفي أعدادها الماضية والآتية؛ إنما هي أقلام تكشف عن بوارق الأمل وإشراقات الرجاء... مع خالص الاعتذار من الأساتذة الذين أعجزنا ضيق المكان من الإشادة بمقالاتهم القيمة. ■

بسم الله الرحمن الرحيم

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد العشرون – السنة الخامسة (يوليو – سبتمبر) ٢٠١٠

التصور العام

• حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
• تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
• تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
• تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

• أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
• ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
• يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
• تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
• المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
• تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
• النصوص التي تنشر في المجلة تعبّر عن آراء كُتّابها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.
• للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
• مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:
Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز
مصطفى طلعت قاطيرجي أوغلو

المشرف العام
نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير
هانئ رسلان
hraslan@hiramagazine.com

مدير التحرير
أجير إشيوك
eisiyok@hiramagazine.com

المخرج الفني
مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس
HIRA MAGAZINE
Kısıklı Mah. Meltem Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902164224140
hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع
٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +20222631551
الهاتف الجوال: +20165523088
جمهورية مصر العربية

نوع النشر
مجلة دورية دولية

Yayın Türü
Yaygın Süreli

الطباعة
Çağlayan Matbaası
İzmir - Türkiye
Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع
١٨٧٩-١٣٠٦

للاشتراك من كل أنحاء العالم
pr@hiramagazine.com



المحتويات





EGYPT
7, el-Barameka st, off al-Tayaran st. al-Hay al-Saabi
Nasr City-Cairo/EGYPT
Phone-Fax: +20222631551 Mobile: +20165523088

TÜRKİYE
Kısıklı Mahallesi, Meltem Sokak, No:5
34676 Üsküdar-İstanbul/TÜRKİYE
Phone:+90(216) 318 60 11 Fax:+90(216) 422 41 40

USA
Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone:+1 732 868 0210 Fax:+1 732 868 0211

SAUDI ARABIA
الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي:
شارع التخصصي مع تقاطع شارع الأمير سلطان بن
عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
Phone-Fax: +966 1 2815226

SYRIA
GSM: +963 955411990

MOROCCO
الدار البيضاء ٧٠ زنقة سجلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Edition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

YEMEN
دار النشر للجامعات
الجمهورية اليمنية، صنعاء، الخط الدائري الغربي، أمام الجامعة القديمة
Phone: +967 1 440144
GSM: +967 711518611

ALGERIA
GSM: +213 770 625650

SUDAN
Phone: +249 918248388

JORDAN
GSM: +962 776 113862

UNITED ARAB EMIRATES
دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

MAURITANIA
Phone: +2223014264



ونحن نبني حضارتنا

فتح الله كولن

إننا كأمة لابد لنا اليوم أن نعرف البرامج والخطط التي نسير بها إلى المستقبل، والمراحل التي نريد التنقل عَبرها في مسيرنا. لقد أحاط بمجتمعنا في ماضينا القريب أحداث مأساوية زعزعتنا، وفَتحنا عيوننا على العصر في ضبابٍ ودويِ صواعقَ كأنها قيامة حمراء! فكان عسيراً جدا -بطبيعة الحال- أن نبصر بوضوحٍ ونقاءٍ الغايةَ والهدف الذي هو "إحياء أمتنا"، وأن نستدل على الاتجاه القصير الصائب للوصول إلى ذلك الهدف، وقد وجدنا أنفسنا في غبش ذاك الضباب والدخان ومركزِ رجة الكثير من الزلازل. بل لعل ذلك كان محالاً بواقع الأحوال الداخلية والخارجية. نعم، كان عسيراً أو محالا، لكن العجيب أن تتشكل رؤى هذا المجتمع في "الانبعاث من جديد" وأن يتوجه إلى قيمه الذاتية، بالتزامن مع هذا الوقت العصيب بعينه، بعدما سيق إلى التضعضع في كل ما هو ذاتي فيه، وهُيء ليُستَلبَ وجُعل "قابلا للاستعمار". وكان هذا حالاً خارقاً للعادة... لأن الشعور الفردي كان مهزوزا من الأساس، والشعب كان حائراً ومضطربا في قلب أشد الزلازل وأرهبها، وجموع البشر كانت مقصومة الظهر في مآس مفزعة من أندر ما في التاريخ.

وفي خضم ذلك الضباب والدخان الكثيف حيث لم يكتمل تشكُّل الوجدان والرأي العام الاجتماعي بعدُ... لم يكن هناك غيرُ أفراد منقطعين عن بعضهم البعض، يكدّون من أجل الوصول إلى المستقبل بدافع: أن يجدوا لقمتين ومأوى؛ ويعني ذلك أنهم يحسبون المراوحَة في مكانهم سيراً وتقدما، غافلين عن غاية حياتهم، وعن وجود قيم سامية تستحق كل شيء حتى الموتَ في سبيلها. نعم، كانت الأفكار مشتتة، والإرادات مهزوزة، والهمم مشلولة، والآفاق مظلمة، والقلوب خاوية. ولكن مع هذه المثبطات كلها، كان المجتمع يصنع كل يوم أحلاماً جديدة ويُسَرّي عن نفسه بالأماني، ثم يرجع خاوي الوفاض مما أمل في كل يوم جديد ببرنامج جديد!

فحديثه عن تصاميم تشبه أحاديث النيام، وحديثه عن مشاريع، ولو ذات نطاق ضيق، كانت تتزامن مع هذه المرحلة المشؤومة التي تَضاعف فيها وقْعُ النكبات عليه، وتوالت عوامل التعرية الروحية. ولقد بدا كل شيء في البداية كردِّ



فعلٍ للأفكار المستهان بها، والمعتقداتِ المتعرضة للتزييف، والضمائرِ المقموعة. ثم تلت ذلك حركاتٌ مستشعرة واعية، وأنشطة مستديمة. فمن اللائق أن نعتبر تلك البداية بداية حقيقية للانبعاث بعد الموت لأمتنا. وكان طبيعيا أن يظهر بعد هذه المرحلة -كما ظهر قبلها- من يريد أن يتحكم في هذه الحركة الواعية المستشعرة، والطاقةِ الحاصلة من إحياء النفوس والأرواح، ويوظِّفَها كما يهوى ويشتهي... وقد ظهر فعلا. ولكن جموع البشر لم تَعُد تَقبل أن تقع -كرة أخرى- في موقع "القابلية للاستعمار"، بعدما بدأت تُدرِك ذاتَها بذاتها، وبمقوماتها الداخلية الذاتية.

بداية واعدة

ومع الزلات والكبوات، كان الانخراط يمضي ويدوم في هذا الإحياء الذي صارت الجموع تستشعره في عوالمها الداخلية وفي أرواحها وقلوبها. وسيحظى الجميع -الجميع من غير استثناء- بوجودٍ ذاتي جديد، عاجلا أو آجلا. صحيح أن موانع كأمثال ذلك الضباب والدخان القديم لا زالت تُعيق الرؤية السليمة والإحساس السليم للمجتمع، لكن كثافة الضباب والدخان اليوم ليست كالقتام الذي عرفناه؛ فبشيء من الهمة والجهد، صارت القلوب قادرة على أن تنهل من منابعها الذاتية وأن تحلم بتحقيق رؤاها الحضارية.

غير أنه ينبغي اليوم، أن نحدد إطار الفهم لتلك الحضارة، ونعيد النظر في كنهها (بتعريف جامع ومانع)، ونقف على المعنى والمحتوى لأمسنا، وفوضوية يومنا وغموضه، والمعالجات المتصوَّرة لغدنا... ثم نتعرفَ على صوت هذا العصر مع الحفاظ على الأصل والذات من جهة، وأخذِ معالجات الزمان الحاضر وتفسيراته بنظر الاعتبار من جهة أخرى. وبدهي أن هذا عمل شاق، لكننا قادرون على القيام بأعبائه بعناية الله ﷻ، ما دمنا قد ألقينا بأنفسنا في هذه الطريق...

ومن مقاربة أنتروبولوجية (Anthropology)، نجد أن الحضارة -والتي يمكن أن نفسرها بأنها مجموع النشاطات المتعلقة بتنظيم الحياة الإنسانية، أو التصورات الفكرية والاعتقادية والفنية لأي أمة، أو كل الأوصاف الخاصة بوجودها المادي والمعنوي- مفهومٌ له أشكال مختلفة وعديدة، وذلك حسب الرؤى والفهوم والفلسفات والقدرة على التلقي. ومهما كثر التنوع في التفسير، فلا شك أن الرؤية السليمة ليست تلك النوعية والأساليب من الحياة التي انتقلت إلينا من رجال فترة الاستعمار، فتقطعت أنفاسنا لهثاً وراءها منذ سنين طويلة، ونزعنا من أجلها عن أنفسنا كثيراً من قيمنا. ولو كانت كذلك، لفَقَد الكفاحُ العظيم ضد الاستغلال والاحتلال كلَّ معانيه وجدواه.. والواقع أن هدف الكفاح كان واضحاً، وهو: الاستقلال التام في كل النواحي.

فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلا يُمكّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي، وفلسفتنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص.

وبغض النظر عن التحليلات الأنثروبولوجية الحديثة لابد لنا -وبقدر المستطاع- أن نستخدم جميع الوسائل المشروعة للوصول إلى الهدف الجليل الذي يمليه علينا فكرنا الذاتي، ونجدَ حلولاً بديلة للتخلص من الفوضى التي نعيشها... وعلينا -إذ نبحث عن الحلول البديلة- أن نأخذ بنظر الاعتبار كل الحيثيات التي تتعلق بموقعنا الجغرافي والاجتماعي.

ولئن كانت الحضارة عنواناً أو مصدراً لمجموع الأحوال والأشراط المادية والمعنوية، وكانت هذه الأحوال والأشراط واعدةً بتلبية حاجة أفراد ذاك المجتمع من أطفال وشباب وشيوخ ومسنين، بل ملبية لها بالفعل في كل مرتبة من مراتب الحياة، وفي كل مرحلة من مراحل التطور.. فإني أحسبُ أن الأصوب هو أن ننظر إلى القضية بعينٍ عملية إلى جانب المنظور الأنثروبولوجي، بصورة قد تتعدى علم الأنثروبولوجيا البحت. وإذ نفكر في هذا، يلزمنا ألا نُهمل المرحلة الراهنة لتطور للمجتمع. فإننا إذا اقتدينا -بوضعنا الحالي- بدول سبقتنا في وتيرة الإمكانات الحضارية بأشواط بعيدة، أو بأخرى تقطع المسافات بسرعة البرق في الطريق الذي نمشي فيه مرة ونكبو أخرى، ومعنا آخرون ممن يقاسموننا الخطوط والتوجهات نفسها، للوصول إلى الغاية، فأحسب أننا سنقع تحت صفعات الخيبة عند الفشل في نوال المقصود، ونعجز عن الوقوف على أقدامنا تحت وطأة الخذلان.

دور البيئة في ظهور العبقريات

إن المجتمعات المتطورة والمتقدمة اليوم كانت من قبلُ تعاني



من مثل ما نعانيه، وتقوم وتقعد في تلبد كتلبدنا، وتكتوي بنارِ عذاب كعذابنا. ثم جاءتها أيامٌ فُتحت فيها أبواب التجديد على مصاريعها بفضل ما كانوا يتمتعون به من شوق البحث وعشق العلـم وحثيث العمـل ومكافأةٍ من وُفقـوا، بأجزل المكافآت. فتَحقـقَ النجـاح إثر النجاح مما أدى إلى فوران العزم وشـحذِ التوق، وصارت البيئة عندهم مشاتل تحتضن فسائل العبقرية... فتَتَابَـعَ الاختراع؛ من مكائن البخار إلى مصانع النسـيج، ومن مختبرات الأبحاث إلى المطابع... وبَلَغوا بعد مدةٍ عصرَ العلم والعقول الألكترونية.

ولما كافأ الذين يقدِّرون العلم في تلك الأيام الكشـوفاتِ والاختراعـات والأبحاثَ العلمية، صاروا وسـيلة لانكشـاف القابليـات العظيمـة فـي كل مـكان لِتجـدَ فرصتها فـي النماء والتطـور، فـكأنّ أطـراف أرضهـم معرض العجائـب، لأعمال النوابغ الذين لا يَعرفون الفتور.

وكما تعاقب ظهور العلماء في عالمنا الإسلامي، من أمثال ابن سـينا والفارابي والخوارزمـي والرازي والزهراوي... إبان تحقُّق الوسط والبيئة الشبيهة، كذلك استَخدم الغربُ ما توارثه من المكتسـباتِ خير استخدام وبأوسـع وجه ممكن في ذلك الوسط، واستطاع أن يسِمَ القرون الأخيرة بسِمَتِهِ.

قراءة شمولية للتجربة الغربية

لذلـك، من الغلـط أن نحصر حاضر "الغـرب" في آثار جهود علمـاء ذوي قابليات راقية، مثـل كوبرنيك، وغاليلو، وليونارد دافينشـي، ومايـكل أنجيلـو، ودانتـي.. أو أديسـون، وماكـس بلانك، وآينشتين؛ فلا يمكن أن نُرجع "النهضة العلمية" أمس، ولا الفـوران العلمـي والتكنولوجـي اليوم، إلى مسـاعي عدد قليل من أمثالهم فحسـب. وإلا، فإننا فسـنواجه مشاكل نعجز عن إيضاح أسـبابها بالقاعدة المعروفة بـ"تناسـب العلية". فإن النجاحات الخارقة للعادة، المتحققة أمس واليوم، والتكوينات العالمية الكبرى، مرتبطة -إضافةً إلى عبقرية الأفراد ونبوغهم- بالبناء الاجتماعي المولدِ للعبقرية، والوسـطِ المناسب لتنشئة المكتشِفين، والبيئةِ العامة الحاضنة للقابليات.

فنقول بهذا الصدد: إن الحديث عن الوسـط والبيئة العامة مازال يرِد حيثما يرِد ذكر همة أصحاب الاستعدادات السامقة وجدُّهـم وجهدهـم، بـل كثيـراً مـا يظهر الدهـاء والقابليات لأصحـاب المواهـب العظيمـة والعباقـرة السـامقين بقـدر ما تسـمح به البيئة العامة. وتَوَقُّعُ ما يخالف ذلك غير مُجْدٍ اليوم أيضاً.. فبدهي أنه ما من أحد يقوى على تغيير قواعد "الشريعة الفطريـة". فالذي يناطح السـنن الكونية كلَّها فسـيخرّ منهزماً، عاجـلا أو آجـلا. إن العبقرية فـي أرضٍ غيـر أرضها محكومٌ عليها أن تكون كعصفٍ مأكول، كما يُحْكَمُ على البذرة بالفناء في أرض لا تُرعى فيها بالهواء والماء والقوة الإنباتية.

رؤية تسلسلية لمراحل الانطلاقة

إذن علينا أن نبحث عما نأمله لغدنا، في نقطةٍ تتلاقى فيها البيئة الصالحة وعشـقُ العلم وعزمُ العمـل والبحث المنهجي. فإذا ما أثارت البيئةُ الصالحة العشقَ العلمي، وألهبت العزائم على السعي والإنجاز، فستشعر القلوب الحساسة بذلك في أعماق كيانها بعمليةِ امتصاصٍ خارقة، ثم تقوّمه، ثم تضعه موضع التنفيذ في إطار منهجية معينة. وبعد ذلك، تعمل "الدائرة الصالحة"[1] للارتقـاء بإلهاماتٍ وتداعيـات وتركيبات وتحليلات جديدة.. تعقبها -باستمرار واطرادٍ- الجهودُ الفكرية والنُّظُم المنسجمة مـع مقوماتنا الذاتية والمتوافقةُ مـع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية.

لكـن الحاصـل عندنـا كان دائماً عَرْضـاً خَلاّبـاً لما أنتجه غيرنا تحت اسم التحديث أو النهضة الإسلامية، وإن كان أكثر هذه المنتجات يناقض مرتكزاتنا الأساسية. فلم نفلح في تفهم "التحديث" أو "النهضة" بمقوماتها الذاتية، أو -قل إن شـئت- ذهلنـا عن ذلـك. ومن هذا الوجه، نسـتطيع القول بأنَّ تخلف عالمنـا عن اللحـاق بما بلغته الدول المعاصـرة، وعجزَه -مع كده وجهده- عن تحقيق النهضة المأمولة، ليس بسبب الوضع الجغرافـي لبلادنـا، أو نقص الإمكانـات، أو ضعف القدرات والقابليات لإنساننا، بل لقصورٍ عن فهم كنه التحديث ونقصٍ في الفكر، والاكتفاءِ بالقوالب الفكرية النمطية كبديل عن حب العلم وعشق الحقيقة.

نموذج ألمانيا واليابان

وأظـن أن التعـرف علـى أنموذج جارتنـا القريبة منـا: ألمانيا، وعمـلاقِ الشـرق الأقصـى: اليابـان، يزيح عن أنظارنا سـتائر كثيرة لنطلع على نواقصنا.

فألمانيـا خرجـت مـن حربين عالميتيـن مثخنـةً بالجراح؛ فـكان حالهـا في النصـف الأول مـن ال قرن العشـرين خراباً وركامـاً ومأوى للبوم الناعب فـي كل طرف، وكأنها هي التي وصفها محمد عاكف في بيت شعر:



الديار خرائب،
والصحاري خالية موحشة،
والأيام محرومة من العمل والكد،
والليالي جاهلة بمعنى الغد.

لكنها تغلبت على المثبطات، ولمت شعثها وجمعت أشتاتها في زمن قصير، وانتصبت بلداً عملاقا أمام العالم. ولم يكن أحد يتفوه بكلمة عن الوحدة الألمانية، حينما كنا نحلم نحن بأحلام التحديث في أوائل القرن التاسع عشر. وإذ صارت ألمانيا بلاد الأحلام متحدية كل هذا الخراب، لا زلنا نثرثر عن أحلام التحديث. وقد يقال: "إن ألمانيا غيرت كفنها إلى قميص مرتين لكونها بلدا غربيا محظوظا، فحققت انبعاثاتٍ بعد موتها مرات حسب فلسفة حياتها... إذ ما كانت ألمانيا قادرة على القيام من كبوتها لولا حظها من القرابة الدينية والثقافية من دول أوروبا". ولئن قبلنا بهذه الفرضيات والتقديرات في شأن ألمانيا، فثم "يابانُ" الشرقِ الأقصى التي تعرضت للحصر والتحديد من العالم الغربي كلِّه ردحاً من الزمن.

إن مشاريع التحديث عندنا تسبق اليابان بنصف قرن من الزمان. إنها بدأت بالسعي الحثيث في طريق التحديث بعدنا بخمسين أو ستين عاماً... فاجتازت كل العوائق وسبقتنا في طفرة واحدة مع أنها كانت قد أصيبت بنكبتين عظيمتين في تاريخها القريب، فأخذت موقعها بين العوائل الكبيرة والقوية التي تتولى شؤون العالم. وإذ نسلي أنفسنا ونُسرّي عنها بأناشيد الولادة والانبعاث من جديد، بدأ اليابانيون بجني ثمار نهضتهم. وإذ ينهش بعضنا بعضاً بعد مائة وخمسين سنة من المسير، بمناقشةِ صحةِ نقطة الانطلاق بدلا من النقاش حول الهدف المنشود.. سد اليابانيون الفجوة بينهم وبين الغرب في زمن قصير لا يعدو الأربعين عاماً، واكتسبوا قدرةَ منافسةِ عصرهم ومنازلته. فاليابان اليوم قوة عملاقة؛ بقدرة اقتصادها ونشاط مبادراتها، وطاقتها الاستثمارية الفعالة، وسُمْعتها الجيدة على مستوى العالم... وقد ظلت اليابان حَذِرة وانتقائية ومُخْلصة لهويتها القومية إبان تحقيقها التحديثاتِ المتتالية وتبشيرِ شعبها بوعود المستقبل المرفَّه، وأثناء اقتباسها من العالم ما تقتبس، وأَخذِها ما تأخذ أو تركِها ما تترك.. فلم تستخف بتاريخها، ولم تلعن ماضيها، ولم تنكر جذورها المعنوية والروحية.. بل ما فتئت تفكر مليا في المهاوي السحيقة بين حالها المتخلف وبين الذرى التي تصبو إليها، وتُقَوّم الحال بعقلانية وواقعية، فخططت مشاريع قابلة للتطبيق، وَآمنت بأنها ستحل معضلات التخلف كلَّها بمنظومة اجتماعية تقوم -إلى حد كبير- على الأسس الأخلاقية، ومَلَأت الفجواتِ الناجمةَ من نقص القدرات وزيادةِ الحاجات، بالاعتزاز الوطني، والانتساب القومي، والعزم، والحركةِ المنظمة الهادفة، وتنظيمِ المساعي والجهود. فنجحت في الاحتفاظ بهويتها الذاتية، وصارت أنموذجاً يَذكُره التاريخ كشعب أنجز عجائب العصر.

إن كنا نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحثُ عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلّص من احتلال المفاهيم والأفكار الغريبة في داخلنا، والمبرمجةِ على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتَّبع -بالضرورة- سبيلا يُمكّننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي، وفلسفتنا الذاتية في الحياة، على نسيجنا الحضاري الخاص.



إنَّ مـا فعلنـاه في تاريخنـا القريب هو الكـدح في محاولة بنـاء الحضـارة فوق إنجازاتها السـابقة وأنعُمِهـا وثمراتها. أما اليابان وأمثالها من البلاد المتقدمة، فقد أقامت كل شيء على أسس الفكر الحضـاري والمفاهيم والسـلوكيات الحضارية. ومع تقديري وتوقيري لشيء من التطور الحاصل عندنا، فإني أظـن أن هـذه النظـرة المنحرفـة -في عالمنا الإسـلامي- هي السـبب الرئيس في مراوحتنا في مكاننا بينما يتسابق الآخرون مـن نجاح إلـى نجاح. فبينمـا كنا نكافح نحن في استكشـاف طرق سـهلة ورخيصة للحصول على أنعم الحضارة ووسـائلِ تَقَاسُمِها، أقامت الشعوب المتقدمة بناءَ كلِّ شيء على الإنسانِ والأخلاق والتعليم والثقافة.. واجتازت بسرعة الطير المهاويَ التي سقطنا فيها، فارتقت إلى القمم التي قصرنا عنها.

الإنسان المؤهل وبناء الحضارة

ولننظـر إلـى الموضوع مـن زاوية أخرى؛ إن مجمـوع النتائج والمعطيات لحضارة معينة هي تلك الحضارة عينها. وعلينا أن لا ننسـى أن أهم أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل، وأقوى أسسها الحيويةِ هو دولة حرة ومستقلة، وأثمنُ رؤوس أموالها هو الزمن. ولا نشك أن الدول المتقدمة قد استغلت هذه المقومات بأحسن وجه. وعلاوة على استغلالها هذه المقومات اسـتغلالاً حسـنا، لـم تهمل أبـداً تقسـيمَ الوظائـف، واحترامَ الاختصاصـات، والاهتمـامَ بالإنسـان، ومكافـأة النجاحات، واستثمارَ الإمكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثمارا مُجْدِيًا؛ وفـي المقابل إذا وقعت هذه المقومات التي تسـاوي قيمـا فوق القيم في أيدي المجتمعات التي لم تنظِّم مسـاعيها تنظيمـاً دقيقـا، ولم تـوزِّع الواجبات والأعمـال توزيعاً جيدا، ولم تتعرف إلى أسرار ثرواتها المكنوزة والظاهرة، ولم تتفهم القيمة الحقيقية للإنسان، ولم تستثمر الزمن استثماراً مجزيا... ففـي هذه الحالة سـتكون هـذه المقومات كالمتـاع الذي وقع في يد بائع لا يقدِّر قيمتَها فيبيعها بثمن بخس دراهم معدودة.

إن كل الأمـم التـي تركـت حضاراتُها آثـارا وبصمات في التاريخ والخرائط الجغرافية، لم يُنقش اسـمها على صفحات التاريـخ بأحـرف بـارزة إلا بمثـل هـذه المثابـرة فـي التقويم والتنظيـم، والقابليـةِ في التركيب والتحليـل، والتعبئة الروحية والفوران المعنوي..

ففـي الخط التاريخي الطويل، الممتد مـن البراهمانية إلى البوذيـة، ومن اليهودية إلى المسـيحية ثم الإسـلام، هناك أمم عديـدة تربت فـي مهد الإيمان والعشـق والتصورات الروحية والمعنوية فأكسبت الأرض والزمان والإنسان قيما لا تقدر بثمن

لكن الواقع أن الإسلام يمتاز بأوجه كثيرة عن جميع الأفكار والنظـم القديمة والحديثة، الدينية واللادينية. وابتداءً، فإنه من المسَـلَّم به أن حركات التجديـد والتحديث الواقعة في جميع النظم غير الإسلامية، أدت إلى إبعاد الدين عن مركز الحركة. أما في الإسـلام، فـ-على خلاف ذلك مطلقاً- قد تولى الدينُ رسـالة مهمة في مركز الحركة التجديدية، وتحولت كلُّ حملة إلى تماسـكٍ ونضوجٍ واعدٍ بالمستقبل، بتغذيتها المستمرة من معانيه وروحه.

دور الدين في انطلاقنا الحضاري

وما زال إنسـاننا منذ سـنين ينتظر من روح الدين بارقة من هذا النـوع كلما هم بالقيام بعمل. وبالفعل لاحظنا أن لمعان بارقة مـن هذا النوع ولو من بعيـد، أو رؤى تحمل رموزا ودلالات حوله... قد كفت لانبعاثِ أرواح بالية منذ مئات السنين.

فمـا بالـك إذا اطلعنـا على نتائـج الجهود التـي تبدو الآن ضعيفـة ولكنهـا فـي الحقيقـة مهمـة؟! فإنني أظـن أن الآمال حينذاك سـتتحفز وتتشـدّ بجدةِ "انبعاث بعد الموت"، وتَنهضُ الإراداتُ، وتَجيش القلوبُ بالإيمان، فإذا بنا نُحَقِّق المشـاريعَ الحضارية المترقَّبة منذ مئات السنين واحدا تلو الآخر. هذا، ما لم نستسـلم للعوائق المصطنعة والموقوتة التي تريد أن تقطع علينا السـبيل، وما لم نتطلع إلى الأجور الدنيوية أو الأخروية لخدماتنـا التي نحن ملزمون بأدائهـا والإيفاء بحقها، وحَصَرْنَا الغاية في طلب رضى الحق تعالى وحده.

إن الفهـم للديمقراطية والحرية -ولو بوضعهما الحاضر- قد خلّصت شعباً عاش رهين الغفلة، وجهزته بأحاسيسَ وأفكارٍ وقـدرات للعبور إلى الحضارة... فإذا لم ندمر التوازناتِ ضد مصالـح أمتنـا، في مواجهـة الأحـوال والمعـادلات الداخلية والخارجيـة، فسـنقتدر فـي العاجـل القريب أن نقـول: هاكم مشـاعرنا الذاتيـة ومنظومتنا الفكريـة وقراءتنا للحيـاة ورؤيتنا الحضارية وثقافتنا الأصيلة... ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(1) أراد المؤلـف بـ"الدائرة الصالحة" الدائرة الوَلود التي يثمر فيها الخير خيراً علـى الـدوام، وهـي ضد الدائرة الفاسـدة التي يفرز فيها الشرُّ شـرا على الدوام في حلقة مفرغة عقيمة. (المترجم)





الإنسان
خُلُق وعمل

أ.د. الشاهد البوشيخي *

إن هذا الدين الذي أكرمنا الله ﷻ به، هو منهاج للفكر والتفكير، ومنهاج للتعبير وللتدبير والتسيير... فهو منهاج لتدبير شؤون الحياة الفردية والأسرية والعامة. وليس المراد منه أن يكون مجموعة أفكار توضَع في خِزانة العقل، أي في جانب من الدماغ لننفق منها في ظروف أو أوقات معينة، وإنما هو توجيهاتٌ ربانيَّةٌ، ورحمة متنزلة من الله ﷻ في كتابه لتحُلَّ فينا قلباً وقالباً، لتحلّ فينا في الجانب النظري أولاً؛ في الفكر وفي العقل وفي القلب، ثم لتتحول إلى سلوك أو إلى لباس كما في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾(الأعراف:٢٦).

إذن، الدين في طبيعته تطبيقي وليس نظرياً أو شيئاً فكرياً فقط، بل هو أعمال أو أفكار تظهر في سلوك وعمل، وهذا العمل نُعتبَر نحن منه ويُعتبَر الدين منه، أي يعتبَر من الدين التفكيرُ والتعبيرُ والسلوكُ والتدبيرُ... وبما أن طبيعة الدين هي هاته كان أكمل المومنين إيماناً، أحسنهم خلقاً، وهذا يعني أن الذي لَبِس الدين، لابَسه الدين وخالطه فصار لباساً له فأصبح أحسن الناس، بل أكمل المؤمنين على الإطلاق. كان من أكمل المؤمنين فعلاً إذا صارت توجيهاتُ الدين -بصفة عامة- وتعاليمُه والرحماتُ النازلةُ من عند الله ﷻ ممثَّلةً فيه بنسبة عالية. أما الذي تمثَّل فيه الدين مائة في المائة، فقد كان واحداً هو رسول الله ﷺ، وقد شهد له الله ﷻ بذلك فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم:٤).

وشهادة السيدة عائشة رضي الله عنها كانت من هذا القبيل حينما سئلت عن خلُق رسول الله ﷺ؛ حيث قالت: "كان خلُقه القرآن" (رواه مسلم). إذن هو ﷺ جملةً، يساوي تطبيقياً القرآنَ الكريم، لأن القرآن حالٌّ فيه بمعناه، وحَالٌّ فيه بعمله.. وهذا العمل الذي يتكون من التفكير ومن التعبير ومن التدبير -بصفة عامة- عليه مدار الإنسان، أي إنه هو الإنسان، وليس الإنسان إلا عملاً فقط. وعندما يموت هذا الإنسان لا يساوي إلا مجموعة أعمال "صالحة" أو "طالحة". وهذه النقطة في غاية الأهمية، لأن الدين ذو طبيعة تطبيقية، وليس المقصود به هو الجانب النظري الذي يعتبَر أساساً فقط للعمل للآخر.

إن الثمرة الحقيقة للدين هي العمل، العمل المحسوس في مجالات متعددة... وقد تجلت هذه الحقيقة مع سيدنا نوح عليه السلام عندما قال: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾(هود:٤٥)، إذ نجد أن الله ﷻ وعَد سيدَنا نوحاً بأن ينجي أهله في الوقت الذي رأى ابنه قد غرق، فيتساءل: ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وأنت وعدتني بنجاة أهلي ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، وما دمتَ قد وعدتَ فأنت لم تخلف قطعاً، ولكن التفويض أدب النبوة مع الله ﷻ، ولذلك قال: ﴿وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾؛ حكمتك عالية وما فعلته قطعاً هو على مقتضى الحكمة، ولكن أريد أن أفهم يا رب؟! فأجابه ﷻ: ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾(هود:٤٦)، وبتعبير آخر: أنت يا نوح عمل صالح، وأهلك هم الأعمال الصالحة وأصحابها هم أهلك، أي إذا وُجد مِن طينتك مَن ليس له عملٌ صالح فهو ليس من أهلك، لأن العمل الطالح ليس من جنس العمل الصالح.

إذن، الإنسان مجموعة أعمال، وإذا استحضرنا أيّ شخصية في التاريخ نجد هذه الحقيقة واضحة؛ إذا ذكرنا فرعون -على سبيل المثال- في القرآن، لا نرى طوله ولا قصره أو غلظه... ولكن نراه مجموعة من أعمال معينة هي التي تكوّن فرعون. وكذلك موسى عليه السلام، فهو مجموعة أعمال معيَّنة تكوّن لنا شخصيته في القرآن، وكذلك إبراهيم عليه السلام... فكل ذلك يدل على أن الإنسان هو عبارة عن مجموعة أعمال.

ومن أمثلة ذلك حوار نبي من أنبياء الله ﷻ مع قومه وهو سيدنا لوط عليه السلام: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾(الشعراء:١٦٧)، فهم ينظرون إلى الفعل، وهو يجيبهم بالعمل: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾(الشعراء:١٦٨)، ولم يقل "إني لكم من القالين"، بل أبرز العملَ الذي هو الأساس في الشخصية، وعليه المدار في الحياة والثواب والعقاب، بحيث لو افترضنا أنهم غيَّروا عملهم لتحوّل البُغْض إلى محبة ولَما قال لهم: ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾.

إن استقامة المنهج التفكيري الذي به نتلقى الأشياء ونعالجها ونُنْتج الأعمال في لحظة التفكير فيها والتخطيط لها، تؤدي إلى استقامة الفعل وطيب النتائج، وأهميته تأتي من كونه بداية الانطلاق، ثم عندما نريد إخراج ما فكّرنا فيه ينبغي أن يَخرُج بطريقة مرضية عند الله تعالى...

الدين سلوك لا دعوى

إن الإنسان في نظرة الدين عبارة عن مجموعة من أعمال، حياً كان أو ميتاً، لأن العمل أساس الرابطة الإيمانية، وبناء كل شيء يتم عليه. إذن، الدين يتجه إلى الجانب التطبيقي بالدرجة الأولى، وهذا ما يراد من الإنسان؛ حيث لن يبقى بعد الموت إلا العمل. وعندما يوضع الإنسان في القبر، يرجع اثنان ويبقى واحد؛ يرجع مالُه وأهلُه ويبقى عمله، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٧). وإن صغر هذا العمل، بل نية كان أو تفكيراً أو هماً بالشيء... فكل ذلك له عند الله أجراً.

إذن، الدين ذو طبيعة تطبيقية وينبغي أن يظهر في المؤمن سلوكاً لا دعوى، سواء كانت الطبيعة التطبيقية قولية أو إشارية أو غير ذلك... المهم أن يظهر الدين عملاً ملموساً فعلاً.

وقد ذكرنا جوانب ثلاثة يتجلى فيها هذا السلوك وهذا الخلُق: جانب التفكير، وجانب التعبير، وجانب التدبير.

أما الجانب التفكيري فهو في غاية الأهمية، لأن استقامة المنهج التفكيري الذي به نتلقى الأشياء ونعالجها ونُنْتج الأعمال في لحظة التفكير فيها والتخطيط لها، تؤدي إلى استقامة الفعل وطيب النتائج، وأهميته تأتي من كونه بداية الانطلاق، ثم عندما نريد إخراج ما فكّرنا فيه ينبغي أن



يَخرُج بطريقة مرضية عند الله تعالى.

ومن ضوابطها الكبرى قول رسول الله ﷺ: "مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقلْ خيراً أو ليصمت" (رواه البخاري).

أنا وأنت نُنتج "فعلًا" اسمه "القول"، و"القول" يدخل في العمل في النظرة الإسلامية؛ فقول الإنسان من عمله، وتفكيره من عمله الذي سيؤجر عليه.

الإذن من الشريعة والحكمة

إن القول الصواب في هذا الصدد يحتاج إلى شرطين: الإذن من الشريعة والحكمة.

الأول: ينبغي أن نفكر في القول قبل تصديره باللسان إلى المستهلك المتلقي أي المستمع، أو ينبغي أن نفكر فيه هل هو إذا وزنّاه بالشريعة جائز قوله أو واجب أو مستحب أو على الأقل مأذون في قوله. نفكر فيه من هذه الجهة، ونفكر فيه من جهة الصواب ومطابقته للواقع والمناسبة، ونفكر فيه من جهة الباعث عليه، أي إن النية التي تقف وراءه تحتاج إلى التصحيح.

الثاني: ينبغي أن يكون صواباً، وكلمة "صواب" تعني المطابقة لأمرين: المطابقة للنصوص الشرعية من ناحية، بحيث لا تصادم الشرع، ومن ناحية أخرى المطابقة لمقتضى المقام؛ إذ لا تتم صوابية الأمر إلا بالإصابة في الناحيتين. فقد يكون الاجتهاد سائراً حسب مقاييس الشريعة، ولكن صاحبه وصل إلى ما ليس صواباً، لأنه لم يناسب ما ينبغي ولم يطابق ما ينبغي، أي لم يُصِبْ المفصل بالضبط، فأصوبُ العمل يقتضي هذين الأمرين.

فإذن الفعل الذي ننتجه، أي القول الذي نقوله ينبغي أن يفكَّر فيه قبل

إن مقابل الشرك في كتاب الله ﷻ هو الإخلاص، والسبب في ذلك هو طبيعة هذا الدين؛ العملية التطبيقية، لأن الإخلاص هو سلوك القلب وفيه تتجلى العبديَّة الحقيقية لله ﷻ، والعبودية الحقيقية ثمة. ولذلك هذه المنطقة للقلب منطقة لا تُرى، وهي منطقة حرام على ما سوى الله ﷻ...

تصديره، أي يجب أن نفكر هل هو بخير أو ليس بخير، أو هل يناسب المقام أم لا؟.. هذه نقطة مهمة قد لا يُلتفَت إليها. فليس كل كلمة مشروعة يمكن قولها في أي وقت وإن كان الكلام حقاً، وهذا أمر صريح في الشريعة. فسيدنا محمد ﷺ الذي هو رسول الله، ويتلقى عن الله، ولا أحد منّا يمكن حتى أن يقاربه، مع ذلك حين قال للسيدة عائشة رضي الله عنها: "لولا أن قومك حديثو عهدٍ بالإسلام، لبنيت الكعبة على قواعد إسماعيل" (رواه مسلم).

ها هو بيت الله الذي اسمه "الكعبة"، له أساس في الجانب الذي رفعه سيدنا إبراهيم عليه السلام، وفيه جانب كان سيدنا إسماعيل عليه السلام قد رفعه والذي يسمى الآن بـ"الحجر"، وحتى الحائط القصير الدائري هو من الكعبة. فأراد رسول الله ﷺ أن يرفع البيت على أصله الكامل، ولكن العرب حديثو العهد بالإسلام، أي في حالةِ ما إذا مس الكعبة وأحدث فيها ضرباً من التغيير قد تقع فتنة.

فدرءاً لهذه الفتنة أوقف ﷺ هذا الحق والخير العظيم. إذن -وهذا ما يسمى بـ"الحكمة"- مطابقة السلوك والتصرف لمقتضى الحال هو ما نشرح به الصواب.

كيف يصبح الكلام عملاً

فإذن "مَن كان يومن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت". أما إذا اختل في القول شرطٌ من الشروط السابقة، أو لم يتبين لنا لا هو خير ولا هو غير خير وحِرْنا فيه، فعندها نطبق القاعدة المعروفة للورع: "دَعْ ما يريبك إلى ما لا يريبك" (رواه الترمذي). يؤول الأمر في النهاية إلى أن مَن تمحضت خيريته، هو الذي ينبغي إنتاجه وقوله، وما لم تتمحض خيريته يُترَك جانباً.

وكلمة سيدنا عبادة رضي الله عنه تَصبُّ في هذا المعنى، فقد قال: "منذ بايعتُ رسول الله ﷺ ما تكلمتُ كلمة، إلا مزمومة مخطومة". ويعني أنه كان قبل ذلك يتكلم كما يتكلم الناس، لكن مع مجيء الإيمان أصبح الكلام عملاً وعليه ثوابٌ أو عقاب كما أخبر رسول الله ﷺ حيث قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: "ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم" (رواه أحمد).

اللسان خطير، ولخطورته جعل الله ﷻ له قفلين؛ قفل الأسنان، وقُفل الشفتين، حتى لا يفتح عما يقال إلا بعد وزنه والتفكير فيه.

إذن، لا وجود للكلمة الحرة التي يمكن أن تخرج وحدها بدون ضابط وتفكير... فإذا كان العقل يسبق اللسان فلا خوف، وأما إذا كان اللسان يسبق العقل فهناك الخوف. ولذلك فالتسرُّع ليس من خصائص أتباع هذا الدين

جملةً، لذلك قال رسول الله ﷺ لـ"أشج ابن عبد القيس: "إن فيك خصلتين يحبهما الله ﷻ، الحِلْم والأناة" (رواه مسلم)، أي السير بتمهُّل.

المسلم في وضع الشهادة والحجة

وإن نقطة "التمهل" راعتها الشريعة في مناسبات مختلفة؛ راعتها مثلاً في المشي: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا﴾(الفرقان:٦٣)، ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾(الفرقان:٦٤)، راعتها في تسيير الأمور: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً﴾(الإسراء:١٠٦)، أي وقسّطناه تقسيطاً: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(الفرقان:٣٢)، مرة واحدة.

التمهل في كل شيء مراعى لسَيْر المتمهل الهادئ، كما يراعى هذا التمهل والتدرج في جميع الأمور. نعم، تأتي ظروف استثنائية تقتضي السرعة في التصرف، ولكن تلك الظروف استثنائية.

يطلب إذن، أن يكيف الإنسان سلوكه وفق الدين، أي أن يماشي السلوك على حسب الدين في جميع جوانب حياته، لأن المسلم ليس إنساناً عادياً، بل إنه في وضع الشاهد والحجة، والحجة لا تقام إلا إذا استجمعت شروطها. المسلم شاهد على الناس بما أنه من أمة سيدنا محمد ﷺ، فهو من موقع الشاهد على غيره في هذا الموقع.

فإذن هل الشهادة هي اللسان فقط؟ لا، اللسان عنده قيمة فقط في التبليغ، ولكن الشهادة الحقيقية تتم بوجود الشخص على هيئة معينة، أي على أنه ممثل للدين تمثيلاً صحيحاً، وإن لم يكن كذلك يمثل تنفيراً من الدين، والمطلوب أن يكون عنصر جاذبية. المسلم له جاذبيته بحكم تمثيله للدين وبحكم خلقه، فإذا كان خلُقه غير الخلُق الشرعي فهو يصد الناس عن الدين ويُنفرهم منه، أي يمنع الناس من الاقتراب من الدين. ونحن الآن على المستوى العالمي في هذا الموقع، فنمنع بقية العالم الذي ليس في العالم الإسلامي الذي لم يرث الدين، نمنعه من أن يدخل إلى الدين بسبب كوننا لسنا ممثلين للدين، لأننا لو طبّقنا لحصلت لنا القوة ولحصلت لنا الإمامة، وإذا حصل لنا هذا حصل لنا كمال الإيمان بإذن الله ﷻ، وحصل لنا العلو وحصلت لنا السيادة ولم نبق في هذا الموقع الذي نحن فيه.

> **حسن الخلُق**
>
> **هو الجانب المعتبر في الشريعة، وهو المعتبر عند الناس، وهو الذي يشاهد عند الناس. وإن الإحسان بصفة عامة هو رأس الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلُقاً، كما أن هذا الإحسان هو المطلوب، أي إن الإنسان يحاول أن يجاهد نفسه في ذات الله تعالى لتزكو وتستقيم على أمر الله تفكيراً وتعبيراً وتدبيراً...**

حَمْلُ العلم بدون عمل حجة علينا

إن الدين خلُقٌ، وهكذا ينبغي أن نفهمه، كما أن هذه الفقرة من الحديث النبوي الشريف تبيّن ذلك بوضوح: "كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" (رواه مسلم)، "القرآن حُجَّةٌ لك أو عليك" (رواه مسلم). إنْ تحوّل العلم إلى عمل صار حجة للشخص وإذا لم يتحول إلى عمل صار حجةً عليه، ونرى الرسول ﷺ إذ يقول: "اللهم انفعني بما علّمتني وعلّمني ما ينفعُني وزدني علماً" (رواه الترمذي).

إن العلم حقيقة يقتضي اليقين، وإنه لا ينفصل عن السلوك، وإذا لم يوجد سلوك وفق هذا العلم انتفى العلم. فإذا وصلت المعلومة إلى الذهن واستقرت في القلب، أنتجت درجة اليقين الذي ينتج الطاعة المطلقة: ﴿أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(الزمر:٩). إذن الذي هو قائمٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه، هو العالم حقاً، وليس الذي يعرف كذا وكذا من الآيات والأحاديث ويقرأ عدداً من الكتب.

المهم هو عملية التحويل من الجانب النظري إلى الجانب السلوكي. فأثر عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه لم يكن يأخذ كثيراً من الكلام من مجلس رسول الله ﷺ، بل يأخذ طرفاً قليلاً ثم يذهب ليحوّله، ويأتي ليأخذ طرَفاً آخر. وقد أثر عن عبد الله بن عمر ﷺ أنه قضى ثماني سنوات وهو يتعلم سورة البقرة، أي يردها إلى واقع، ويجاهد نفسه في ذات الله ﷻ لكي يحوّلها إلى واقع خاضع للتوجيهات القرآنية.

العَمل بالعلم هو الطريق لنشر الإسلام

لا قيمة لما يُعلم ما لم يحوَّل إلى عمل، وإن المسلم إذا أحسن العمل بما يعلم



فقد مهّد السبيل لنشر دين الله ﷻ، ومهّد السبيل كل التمهيد لجعل الناس يُقبِلون على الله وعلى دين الله ﷻ وعلى كلمة الله ﷻ. وإذا أساء التطبيق فساء الخلُق ومن ثم أبعدَ الناسَ عن طريق الله ﷻ، لأنه في هذه الحالة يكون قد مثّل ضرباً من اللبس والإشكال. فلذلك كانت أهمية الخلُق، الذي ألح عليه رسول الله ﷺ وأنزله تلك المنزلة الرفيعة فقال: "إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم" (رواه أحمد).

حسن الخلق يشمل كل جوانب الدين

يشمل حسن الخلُق كل جوانب الدين، وعلى رأس ذلك "الإيمان الحسن"، لأن الشرك سوء خلُق، أي إن الشرك الذي هو أكبر كبيرة موجودة في الدين هو عبارة عن سوء خلُق، لأن نعمة الوجود نعمة تستحق كل شكر، وإذا أضفت إليها نعمة الإمداد بكل ما يحتاج إليه الإنسان من هواء يتمتع به، وشمس تدفئه، ومناظر تعجبه، ومأكولات تغذيه إلى غير ذلك مما لا يحصى من النعم، فكم تحتاج هذه النعم عندها من شكر؟.. هل الإنسان أوجدها؟ إذن هل يوجد شيء أقبح الشرك؟..

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٢١-٢٢)، وكيف تشرك معه غيره وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(لقمان:١٣)، كما أن الظلم في العربية هو: وضع الشيء في غير موضعه.

إن المسلم

ليس إنساناً عادياً، بل إنه في وضع الشاهد والحجة... والحجة لا تقام إلا إذا استجمعت شروطها. والمسلم، شاهد على الناس بما أنه من أمة سيدنا محمد ﷺ، فهو من موقع الشاهد على غيره في هذا الموقع. والشهادة الحقيقية تتم بوجود الشخص على هيئة معينة، أي على أنه ممثل للدين تمثيلاً صحيحاً...

الإخلاص لله، من أعظم الأخلاق الحسنة

وحسن الخلُق مع الله ﷻ يشمل بالدرجة الأولى الإخلاص، لأنه هو المقابل للشرك. ففي صريح القرآن الكريم نجد أن الذي يقابل الشرك هو الإخلاص، وليست اللفظة السائدة التي تسمى "التوحيد" التي يُتكلم عنها كثيراً، والسبب هو طبيعة هذا الدين التطبيقية، لأن التوحيد يحيل على الجانب النظري ولا وجود له في كتاب الله ﷻ، بينما الإخلاص يُحيل على سلوك قلبيّ. والإخلاص ليس فكرةً "قارة" في الدماغ، ولكنه ممارسةٌ للقلب البشري، أي سلوك ممارس وذاك الذي عليه المعول.

لأننا لما نقول لفظة الربوبية عملياً نكون قد استخضرنا ما هو آت من عند الله ﷻ إلى العبد من نعم لا تُحصى؛ مثل الرحمة والخلُق والرزق... أي كل أسماء الله الحسنى التي تفيد بأن أشياء آتية من عنده إلى العبد، فكلها تدخل في إطار الربوبية، أما الألوهية فتأتي من العبد، فهي من عند العبد طالعةٌ وصاعدة إلى الله ﷻ، وثَمّ مكانُها، أي هل قلبُ العبد يتعلق بالله ﷻ فقط أم به وبغيره أو بغيره فقط؟ لأن القلب هو محل الإخلاص ومحل الهوى أيضاً، ولذلك قال رسول الله ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به" (رواه البخاري ومسلم).

يجب أن يطوّع الهوى للشريعة، والدرجة الرفيعة في هذا التطويع هي أن تجد حلاوة في ذلك: "ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان؛ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ﷻ" (رواه البخاري ومسلم)، وهذه درجة أخرى تسمى حلاوة الإيمان، والسعيد مَن وصلها.

إذن مقابل الشرك في كتاب الله ﷻ هو الإخلاص، والسبب هو طبيعة هذا الدين؛ العملية التطبيقية، لأن الإخلاص هو سلوك القلب وفيه تتجلى العبديَّة الحقيقية لله ﷻ، والعبودية الحقيقية ثمة. ولذلك هذه المنطقة للقلب منطقة لا تُرى، وهي منطقة حرام على ما سوى الله ﷻ، "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم" (رواه مسلم). وعلى هذا الشيء كان القلب هو الذي معه "الكلام"، لأن الجريمة تنبت نزغاً من الشيطان في القلب؛ في الأول تكون فقط طائفاً من الشيطان أي خاطراً أو نزغاً، ثم تتحول إلى فكرة، ثم إلى قول أو إلى فعل. فالإسلام يحاصرها في المهد، الإخلاص يحاصرها في منطقة التلقيح

والنشوء في وسط القلب...

﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(فصلت:٣٦)، أي انتقل إلى الله ﷻ بسرعة واقطع على الشيطان الطريق، فإذا تم قطع الطريق عليه في القلب لم يبق له المرور إلى اللسان ثم إلى الممارسة السلوكية. وهذا السلوك القلبي -وهو الإخلاص- من أحسن الخلُق مع الله ﷻ.

حُسْنُ الخلُق يشمل إحسان العلاقة بالله وبالناس

هناك حُسْن السلوك مع الناس بدءاً برسول الله ﷺ، وهناك حُسْن الخلُق مع النفس... فكيف لجميع هذه الصور (أي لحسن الخلُق) أن تكون في صورتها الممتازة؟ نعم، يجب أن تتحول كلها إلى لباسٍ في القلب، أي الإحسان في العبادة سواء في التفكير أو في التعبير أو في التدبير... ولذلك قال رسول الله ﷺ تعليما لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وللمسلمين كافة: "لا تنسَ دبُر كل صلاة أن تقول: اللهم أعنّي على ذكرك وشكرك وحُسْن عبادتك" (رواه أبو داود). هذا الإحسان في العبادة كلمة جامعة كالخاتمة، والآخَرين يمهدان لها على الرغم من أنهما منها...

فحسن الخلُق هو الجانب المعتبر في الشريعة، وهو المعتبر عند الناس، وهو الذي يُشاهَد عند الناس.

أحْسِن إلى الناس تَسْتَعْبِد قُلُوبَهم
فطال ما استعبد الإنسان إحسان

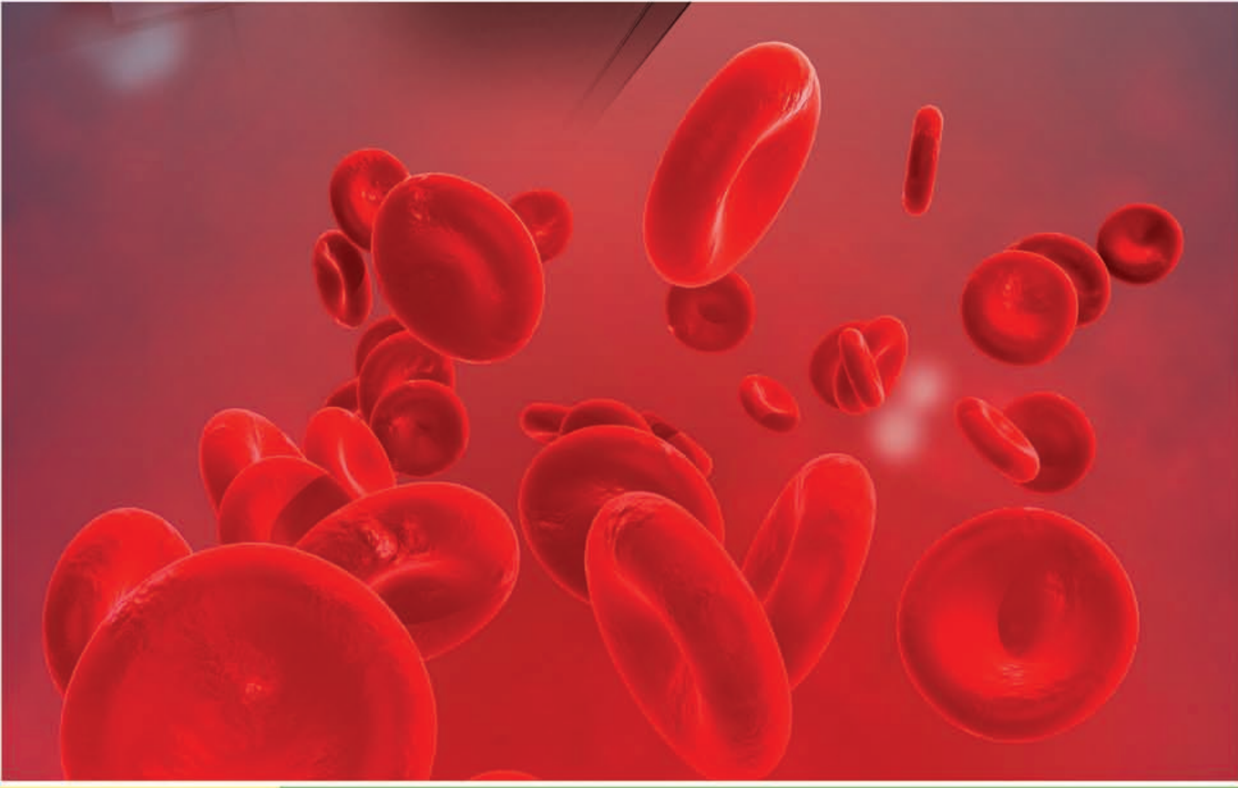
إن الإحسان بصفة عامة هو رأس الإيمان، وأكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلُقاً، كما أن هذا الإحسان هو المطلوب، أي إن الإنسان يحاول أن يجاهد نفسه في ذات الله تعالى لتزكو وتستقيم على أمر الله ﷻ؛ تفكيراً وتعبيراً وتدبيراً... ويحاول كف أذاه عن الخلق بصفة عامة، وهو يكف أذاه بجميع أشكاله عن الناس، ويصبر على أذى الآخرين، ثم ينتج الخير ما استطاع إليه سبيلاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(الحج:٧٧). ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

العودة

يا شفاهنا العطشَى، يا عيوننا اللهفَى!
للماء.. للخضرة..
يا يعقوبَ قلوبنا! مثلك عانينا..
بضياع "يوسف" كان امتحانك،
وبالتّيه مع البشرية نحن اليوم ممتحَنون،
وكما إليك -يا يعقوب- عاد يوسف
ألا يمكن للبشرية إلى الطريق من جديد ستعود..؟!
* * *



الدم، ذاك السائل الذهبي

د. حذيفة أحمد الخراط *

عَرف الإنسان سائل الدم منذ قديم الزمان، وكثيراً ما جاء ذكره في كتابات الحضارات القديمة ونقوشاتها، واستمر وصفه عبر قرون طويلة مضت؛ نسج القوم خلالها وحاكوا الكثير من الروايات والنقولات التي ارتبط خلالها الدم بالأذهان، بالسائل المهيب ذي اللون الأحمر القاني الذي يحمل سر الحياة.

ثم اكتشف الإنسان الحديثُ جانباً من أسرار سائل الدم، وكان هذا نتيجة تطور الدراسات العلمية التي طال انتظارها، وجاءت بعد ترقب لينتج عنها فتح باب المعرفة الذي بقي موصداً أزماناً طويلة. وقد دعم ذلك تطورُ استخدام المجهر وتقدم علوم التشريح والأنسجة، مما كفل بسبر المزيد من أغوار الجسم وأسراره، والتعرف على البنية التشريحية الدقيقة لمكونات سائل الدم. وعليه فقد عُرف عن الدم الآن أنّه سائل الحياة الذي يجول في أجسامنا، ويجري ضمن أوعية خاصة تحمله فتتناقله فيما بينها خلايا أجسامنا المختلفة وتتبادله دون أدنى شعور منا أو إحساس.

إذن فما الدم؟ وما مكوناته؟ وما الدور الذي يقوم به داخل أجسامنا؟ وما الرسالة التي تحملها لنا عجائب الخلق في جسم الإنسان عبر هذا الدم؟..

مهمة الدم

يتكون الدم عموماً من عناصر صلبة تسبح ضمن سائل ذي لون شفاف، وتضم هذه العناصر خلايا الدم الحمراء وخلايا





الدم البيضاء والصفائح الدموية، أما السائل الذي يحوي تلك الأجسام فيُعرف علمياً بـ"البلازما"، وتبلغ كمية دم جسم الإنسان البالغ، نحواً من خمس لترات.

والدم هو وسيلة النقل الكبرى في جسم الإنسان وأهمها على الإطلاق؛ إذ تكمن وظيفته الرئيسة في تزويد خلايا الجسم وأنسجته المختلفة بما تحتاج إليه من العناصر التي تعينها على القيام بوظائفها الفسيولوجية المختلفة. فالدم مثلاً يحمل ما يدخل إلى الجهاز الهضمي من المواد الغذائية ليوزّعها على خلايا الجسم أينما كانت، وفي الوقت نفسه يخلّص هذا الدم تلك الخلايا مما تنتجه من فضلات ومخلّفات، يتم توجيهها نحو الكلى لتمتزج مع غيرها من مخلفات الجسم التي سيتم طرحها مع سائل البول.

ومن جهة أخرى، ينقل الدم أيضاً غاز الأكسجين الذي يدخل الرئتين محمولاً مع هواء عملية الشهيق، ومن هناك يتجه هذا الغاز عبر الدم إلى جميع خلايا الجسم التي تحتاج إلى الأكسجين للقيام بعملياتها الحيوية المعقدة، وينشأ بالمقابل عن تلك العمليات غاز آخر هو ثاني أكسيد الكربون الذي سينقله الدم لاحقاً من الخلايا باتجاه الرئتين لينتهي إلى طرحه عبر هواء الزفير.

ويحمل الدم أيضاً ما تصنعه خلايا غدد الجسم من الهرمونات وغيرها من المفرَزات، فيقوم بتوجيهها نحو الأنسجة المستهدفة، مما ينتج عنه تحقيق الاستقرار الفسيولوجي والتوازن الحيوي لبيئة الجسم الداخلية.

أخيراً فإن للدم أيضاً دوراً في تنظيم درجة حرارة الجسم والتخفيف من حدّة الحمّى، وذلك عبر وسائط خاصة معقدة تعمل في طرد جزء من الحرارة والمساعدة في الاقتراب من حدّها الطبيعي. ويجدر بالذكر هنا أن درجة حرارة سائل الدم تماثل درجة حرارة الجسم الطبيعية وهي ٣٧ درجة مئوية.

سائل البلازما

البلازما مادة سائلة شفافة يميل لونها إلى الاصفرار، وتمثّل نصف حجم الدم الكُلّي تقريباً، ولها دور مهم في نقل الماء والأملاح والمواد الغذائية المختلفة؛ مثل السكريات والفيتامينات والهرمونات... وتوزيعِها إلى خلايا الجسم المختلفة.

يعدّ الماء المكوّنَ الرئيس لسائل البلازما، وتدخل عناصر ذائبة أخرى في تكوينه؛ كالأملاح المعدنية والسكريات والدهون والفيتامينات وبعض الغازات، بالإضافة إلى العديد من البروتينات؛ مثل الألبيومين والغلوبيولين والفيبرينوجين والأنزيمات والهرمونات، والكثير من المعادن كالكلور والفوسفات والكالسيوم والصوديوم والمغنيسيوم والبوتاسيوم، وبعض الأحماض.

ومن الضروري هنا أن نقول: إن جميع ما ذكر من عناصر البلازما محدد بنسب متناهية في الدقة، وأية زيادة أو نقصان طفيفَين في تلك النِسب، يحمل في طياته خطراً صحيًّا كبيراً. وبكلمات أخرى فإن أعراضاً مرضية كثيرة ستنشأ عن تغيّر نسبة أحد مكونات البلازما لأي سبب كان، وقد تَصل خطورة الموقف إلى مرحلة تهدد حياة المريض. فسبحان من خلق فسوى، وقدّر فهدى!

خلايا الدم البيضاء

تعدّ خلايا الدم البيضاء واحدة من أهم خطوط الدفاع التي أوجدها الخالق تعالى في أجسامنا بغية حمايتها ممّا قد يغزوها من الكائنات الحية المجهرية؛ مثل البكتريا والفيروسات. وتؤمّن الكريّات البيضاء هذه، خلايا مناعيةً بأشكال عديدة تقوم بتوفير الحماية للجسم من الأمراض المُعْدية والالتهابية التي تنشأ عن تلك الأحياء الدقيقة.

يتراوح عدد الخلايا البيضاء بين ٧-٨ آلاف خلية في كل





ملليتر مكعب من الدم، وهي بذلك أقل بكثير من خلايا الدم الحمـراء، وتتفـاوت أحجامها وأشـكالها، إلا أنها ذات حجم أكبر من الخلايا الحمراء، كما أنها خلايا عديمة اللون، ويعود ذلك إلى خلوّها من صبغة الهيموجلوبين التي سنذكرها لاحقاً.

وتقـوم الخلايا الجذعية في نخاع العظام بإنتاج ١٢٠ ألف خليـة دم بيضـاء في الثانيـة الواحدة. وتمتـاز الخلايا المصنّعة هنا بنشـاطها في الحركـة، وتخالف بذلك مثيلاتها من الخلايا الحمراء التي تميل إلى عدم الحركة وتلزم جانب الهدوء.

تهاجـر خلايـا الـدم البيضاء باتجـاه ما يدخل الجسـم من البكتريا والفيروسـات المختلفة ويتضاعـف عددها، وتبدأ في السـاحة معركة ضارية، حيث تحيط الخلايا البيضاء بفريسـتها مـن كل مكان وتشـلّ من حركتهـا وتمنعها مـن التكاثر وغزو خلايا الجسـم السليمة، ويُؤمّن ذلك درع وقاية يحمي الجسم من هجوم تلك الكائنات.

أنواع خلايا الدم البيضاء

ثمة أنواع مختلفة من خلايا الدم البيضاء، وقد تم تصنيف تلك الأنـواع اعتمـاداً على وجود ما يعـرف بالحُبَيبات، وهذا يعني تمايـز الخلايـا البيضاء إلى فئات محبّبة وأخرى غيـر محبّبة، وذلك بمعاينة الخلية تحت عدسات المجهر الضوئي.

تكمن وظيفـة حُبيبات الخلايا البيضاء بهضم ما تبتلعه من الكائنـات الحية الدقيقة. وهناك ثلاثـة أنواع من هذه الكريات البيضاء المحبّبة، وهي الخلايا المتعادلة والحمضية والقاعدية، أمـا الخلايا غير المحبّبة فتمتاز بغيـاب الحُبيبات عنها، وتضم كلاً من خلايا اللمفاويات، ووحيدات النوى، والبالعات.

تعـدّ الخلايـا المتعادلة أكثر خلايا الدم البيضاء عدداً، ولها دور رئيـس فـي الدفاع ضدّ العدوى البكتيريـة أو الفطرية التي قـد تصيب الجسـم، وتُعـرف مجهرياً بنواتهـا المفصّصة ذات الشكل المميز.

ويحـدث في حـالات إصابة الجسـم بأمراض الحساسـية -كمـا هو الحال فـي داء الربو مثلاً- أن تتكاثـر أعداد الخلايا الحامضية التي تطلق مواد كيميائية مثل ما يعرف بالهسـتامين، ويؤدي ذلك إلى ظهور أعراض الحساسية المختلفة.

وتتعامل الخلايا القاعدية مع ما يصيب الجسم من العدوى الطفيلية، وتسهم في الحدّ من نشاطها في الجسم. وزيادةُ عدد هـذه الخلايـا في عيّنةِ سـائل الدم مؤشـرٌ هـام للإصابة بتلك الطفيليات، ومثال ذلك الإصابة بالديدان المعوية وداء الملاريا.

تمتـاز الخلايـا اللمفاوية بنـواة غامقة غيـر مركزية، وتنتج أجسـاماً مضـادة متخصصـة تهاجـم بهـا الكائنـات المجهرية التي تغزو خلايا الجسـم، كمـا أن لها مقدرة على قتل الخلايا السرطانية والخلايا المصابة بالفيروسات.

وتمتلك الخلية الوحيدةُ النواةِ نواةً واحدة لها شكل الكُلْية، وتمتاز بعمرها الطويل مقارنة بسابقاتها من الخلايا، وتغادر هذه الخلية مجرى الدم إلى الأنسجة المجاورة، وتتحول هناك إلى خلايا بالعة لتزيل حطام الخلايا الميتة، فضلاً عن دورها الرئيس فـي مهاجمـة الأحيـاء الدقيقة المسـببة للكثير مـن الأمراض.

خلايا الدم الحمراء

هـي خلايا دائرية الشـكل ومقعرة وتشـبه القرص، وتنشـأ من أنسـجة خاصة في نخـاع العظام الكبيرة مثـل عظام الجمجمة والحـوض والفخذ، وتتجدد هذه الخلايا بالكامل خلال ١٢٠ يومـاً، فتتكسّـر القديمـة منهـا تدريجيـاً فـي الكبـد والطحال، ويتـم بذلـك تصفيتهـا وإزالتهـا مـن الـدورة الدمويـة، ويحلّ مكانهـا خلايـا وليـدة يضخّها نخـاع العظم في مجـرى الدم. وممـا يلفـت النظـر هنا تحطّم أكثـر من ١٨٠ مليـون خلية دم حمـراء في الدقيقة الواحدة، وما يتم مقابل ذلك من تولّد عدد مماثـل منهـا نحـو دوران الـدم، وبذلـك لا ينقص عـدد تلك



الخلايا من دم الجسم. فسبحان من أحسن كل شيء خلقه.

ويتراوح عدد كريات الدم الحمراء في جسم الإنسان بين ٤-٥ ملايين خلية في المليلتر المكعب الواحد من الدم، وهي بذلك تصبح أكثر مكونات سائل الدم عدداً. وتتحكم الكلى ببناء كُريّات الدم الحمراء الجديدة في جسم الإنسان، ويتم ذلك عن طريق هرمون خاص يدعى بـ"الإريثروبويتين".

ويعدّ الطحال مخزناً لما يفيض في الدم من خلايا الدم الحمراء، إذ يقوم بمد الجسم بحاجته من هذه الخلايا وضخّها عند حاجته إليها، كما يحدث في حالات النزيف الشديد مثلاً.

ولخلايا الدم الحمراء مقدرة فائقة على حمل غازَي الأكسجين وثاني أكسيد الكربون، ويعود ذلك إلى وجود جزيئات الهيموجلوبين التي تتألّف من بروتين يدعى "الهيماتين" الذي يكسب الدم لونه الأحمر، وبروتين آخر يسمى "الجلوبين" بالإضافة إلى معدن الحديد. وتحتوي كل كرية حمراء على أكثر من ٣٠٠ جزيئة من صبغة الهيموجلوبين تلك.

يتحد الهيموجلوبين في كريات الدم الحمراء مع غاز الأكسجين الذي يدخل الرئة محمولاً مع هواء الشهيق، ثم يحمل سائل الدم هذا الأكسجين إلى خلايا الجسم وأنسجته المختلفة، ويأخذ ما تراكم فيها من غاز ثاني أكسيد الكربون الذي سيتحد بالمقابل مع الهيموجلوبين وسينتقل باتجاه معاكس نحو الرئتين ليتحرر هناك، ولتطرحه الرئتان من الجسم أثناء عملية الزفير.

الصفائح الدموية

هي أجسام صغيرة ذات قوام شفاف، ويبلغ حجمها ثلث حجم خلايا الدم الحمراء تقريباً، ويعني ذلك أن قطرها يساوي ثلاثة نانومترات (النانومتر الواحد يساوي واحد على البليون من المتر) وليس لهذه الأجسام شكل منتظم في سائل الدم، كما تفتقر أجسامها إلى النواة التي يمتاز بها الكثير من خلايا الأنسجة الأخرى. ويتراوح عدد الصفيحات الدموية الطبيعي بين ١٥٠-٤٠٠ ألف صفيحة في كل ملليلتر مكعب من الدم.

تقوم أنسجة نخاع العظم بإنتاج الصفائح الدموية، ويصل عدد الصفائح المنتَجة إلى ٥ ملايين صفيحة في الثانية الواحدة، ويتراوح عمرها في المتوسط بين ٧-١٠ أيام، إذ يقوم الكبد والطحال بتكسيرها أولاً بأول، ويعوّض في الوقت نفسه نخاع العظم ما فقده الجسم من تلك الصفيحات، وتستمر دورات متعاقبات من عمليتَي الهدم والبناء هاتين، ولا يتوقف ذلك إلا في حال إصابة الجسم ببعض الأمراض.

وظائف صفيحات الدم

تكمن الوظيفة الرئيسة لصفيحات الدم في تكوين نسيج متين من الخثرات التي تُوقف عملية النزيف وبسبب قدرة هذه الصفيحات على الالتصاق والترابط فيما بينها، فإنه ينتج عن ذلك تكوّن مادة ذات قوام صلب تعرف بـ"الفيبرين"، تتجمّع حول النسيج المجروح وتسدّ فتحات أجزائه المتهتكة لتمنع خروج الدم من خلاله.

تُفرز الكبدُ ما يعرف بمادة الهيبارين التي لها دور هام في وقاية الدم من حدوث الجلطات، إذ إن لها تأثيراً مضاداً لعمل الصفائح الدموية، وهذا يفسّر عدم تجلط الدم داخل الأوعية الدموية الغنية بالصفيحات الدموية.

يؤدي نقص عدد الصفائح الدموية في جسم الإنسان إلى عدم قدرة الدم على التجلط عند حدوث أي جرح أو إصابة، وهذا يعني بالضرورة استمرار عملية النزيف وعدم توقفه، وبالتالي فَقْد كمية كبيرة من دم الجسم. وتحتاج الكثير من الحالات هنا إلى نقل صفائح دموية لذلك المصاب، حتى يصل معدلها في دمه إلى المستوى الطبيعي الذي يكفي للحدّ من عملية النزيف.

ختاماً، فإن في جسم الإنسان الكثير من الأسرار التي ما زالت بعدُ غامضةً ولم يَكشف عن نقابها العلمُ الحديث، وإن ما وصلت إليه العلوم حتى الآن من التعرف على أسرار النفس البشرية، ما هو إلا جزء يسير من نور الحقيقة الرباني، وما تزال الطريق طويلة أمامنا لسبر أغوار المزيد من خفايا الأمور وحقائقها.

وما أحرى المتأمل لحال سائل الدم وما حواه من مكونات -شأنه بذلك شأن غيره من أنسجة الجسم- أن يدرك عظمة خلق الخالق تبارك وتعالى، حين أوجد لنا في أجسامنا ما تحتاج إليه من دعائم ومقومات تكفل استمرار مسلسل الحياة، وهذا مما يدفع بالدارسين والمتأملين للمضي نحو جادة المزيد من الإيمان بالله وآياته العظيمة. فهو سبحانه الذي أحسن كلّ شيء خلقه، وهو القائل في محكم تنزيله: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(الجاثية:٤). ■

(*) اختصاصي جراحة التجميل بالمدينة المنورة / المملكة العربية السعودية.



الموسوعية والموسوعات
في الحضارة الإسلامية

أ.د. محمد عمارة *

من بين دفتي القرآن الكريم ومن سوره وآياته، ولدت الأمة الإسلامية وكل مقوماتها؛ من العقيدة إلى الشريعة إلى منظومة القيم والأخلاق.

ولأن القرآن الكريم منهاج شامل وكامل للدنيا والآخرة، للدين والدولة، للفرد والطبقة والأمة، للذات والآخر: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢-١٦٣). كان هذا القرآن الكريم، المنهاج الذي يكوّن العقل الموسوعي الذي لا يسجن طاقاته في التخصص والضيق والجزئي والمحدود.. يكوّن العقل الذي ينظر كيف بدأ الخلق، وكيف كانت المسيرة الإنسانية للأمم والشعوب والحضارات والنبوات والرسالات عبر التاريخ، ليعتبر بالسنن الإلهية التي حكمت الرحلة البشرية عبر هذه القرون.

ثم هو العقل الذي لا يعيش في الماضي مهاجراً إلى قرونه وتجاربه حبيساً فيها، وإنما هو العقل الذي يستلهم هذا الماضي ومواريثه ليفقه الواقع الحي والمتجدد الذي يعيش فيه، ومن ثم يمد بصره وبصيرته إلى المستقبل القريب والبعيد. ليس -فقط- المستقبل في عالم الشهادة بهذه الحياة، وإنما فيما وراء وما بعد هذه الحياة، أي إنه العقل الجامع -في موسوعيته- للبدء والمسيرة والمصير...

ولهذه الخصيصة الموسوعية للمنهاج القرآني، كانت آيات الوحي الإلهي التي نزل بها الروح الأمين -جبريل عليه السلام- على قلب الصادق الأمين -محمد بن عبد الله- عليه الصلاة والسلام، بمثابة "النواة" أو "الحجر" الذي أُلقي به في "البحيرة" لتنداح من حوله الدوائر المتعددة والشاملة لكل مناحي الحياة ومقوماتها. لقد انداحت من حول هذه "النواة" كل مقومات الدين والدولة والثقافة والمدنية والحضارة... وكل دوائر النور التي أضاءت حياة الإنسان الذي آمن بهذا القرآن الكريم.

كما أحيا هذا الإنسان الأرض الموات، فازدانت حياته "بالمدنية" التي هي عمران الواقع المادي، كذلك تهذبت ملكاته الروحية "بالثقافة" التي هي عمران النفس الإنسانية. ومن "الثقافة" و"المدنية" ومن تراكُم معارفِهما بمرور التاريخ، تكونت الحضارة الإسلامية التي هي إبداع مدني أثمره هذا الوحي وهذا الدين.

ظاهرة العلماء الموسوعيين

وبسبب من هذا المنهاج الموسوعي الذي يثمره الفقه والتدبر لهذا القرآن الكريم، تميزت الحياة العلمية والإبداع الفكري في الحضارة الإسلامية "بظاهرة العلماء الموسوعيين" الذين جمعوا -في إبداعاتهم- بين "عمق التخصص" وبين "شمولية الموسوعية"... فلم تقع عقولهم فريسة "لسجن التخصص" كما أنها لم تصب بالسطحية التي تفهم خطأ من "الموسوعية".

وإذا شئنا أن نضرب بعض الأمثلة على الإبداعات الموسوعية التي أثمرتها عقول علماء هذه الأمة، الذين مثّل الواحد منهم موسوعة شاملة لمختلف العلوم والفنون، والذين برئت عقولهم وإبداعاتهم من الفصام النكد بين "عمق التخصص" وبين "الموسوعية".. فتميزت موسوعيتهم بالشمول لميادين الإبداع في علوم المادة وعلوم الروح، في علوم الدين وعلوم الدنيا، في عالم الشهادة وفي معارف الغيب، في المنقول والمعقول، في الفلسفة العقلية ومنظومة القيم والأخلاق.

إذا أردنا أن نضرب بعض الأمثال على هذه القسمة الموسوعية في تراثنا الفكري والعلمي، فسنجد على سبيل المثال:

- حجة الإسلام أبو حامد الغزالي (١٠٥٨-١١١١م) الذي مثل "ظاهرة فكرية" لعلوم عصره؛ من الفقه إلى الأصول إلى الفلسفة إلى التصوف وعلم القلوب والسلوك.
- وأبو الوليد بن رشد (١١٢٦-١١٩٨م) الذي كان الناس يفزعون إلى فتواه في الفقه كما يفزعون إلى فتواه في الطب، والشارح الأكبر لأرسطو والمتفرد بالكتابة في فلسفة اختلاف الفقهاء وفي علم الكلام، والجامع بين علوم المعقول والمنقول، والمقاصد والوسائل... حتى لقد كان فقيه الفلاسفة وفيلسوف الفقهاء.
- ابن سينا (٩٨٠-١٠٣٧م) الذي كان "الشيخ الرئيس" في الشرعي والمدني، في الإلهيات والطبيعيات، في التصوف وفي النبات والحيوان.
- والبغدادي -أبو منصور عبد القاهر- (١٠٣٧م) الذي جمع بين أصول الدين والهندسة والحساب...
- والخيام -أبو الفتوح، عمر بن إبراهيم- (١١٢١م) الذي كان موسوعة في اللغة والشعر والفلسفة والتصوف والفقه والتاريخ والفلك والهندسة والرياضيات...
- والفخر الرازي (١١٥٠-١٢١٠م) الذي جمع بين علوم الدين والدنيا؛ من التفسير إلى الفلسفة إلى الكلام إلى الأصول... حتى قال مؤرخوه: "إنه كان أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل"... وغيرهم آلاف من العلماء والموسوعيين.

فن التأليف الموسوعي

ولم تقف "القسمة الموسوعية" في الحضارة الإسلامية عند إبداع "العقل والموسوعي"، وإنما أثمرت أيضاً "فن التأليف الموسوعي" الذي اشتهر به العديد من العلماء الذين توفروا على تأليف وتصنيف الموسوعات التي تجمع شتات العلوم والمعارف والفنون والآداب، لتزكي وتنمي "القسمة الموسوعية" لدى طلاب العلم والباحثين والقراء والمتأدبين.

فعرفت حضارتنا موسوعات "الطبقات" التي أرخت لحياة العلماء الأعلام وإبداعاتهم في مختلف مناحي العلوم والفنون، وموسوعات "الخطط" التي أرخت المواقع والمكان والمؤسسات والثروات والتجارات والخانات والرحلات وأنماط المعاش والعادات، وموسوعات "كشافات المصطلحات" في مختلف ميادين المعارف والعلوم والفنون، وموسوعات "اللغة" وعلومها، والموسوعات التي توفرت على "علوم القرآن الكريم" و"علوم السنة النبوية الشريفة"...



فمن "طبقات" ابن سعد (٧٨٤-٨٤٥م) إلى "الفهرست" لابن النديم (١٠٠٠م) إلى "العين" للخليل بن أحمد (٧١٨-٧٨٦م) إلى "إحياء علوم الدين" للغزالي (١٠٥٨-١١١١م) إلى "العقد الفريد" لابن عبد ربه (٨٦٠-٩٤٠م) إلى "الأغاني" لأبي فرج الأصبهاني (٨٩٧-٩٦٧م) إلى "التعريفات" للجرجاني (١٣٤٠-١٤١٣م) إلى "لسان العرب" لابن منظور (١٢٣٢-١٣١١م) إلى "نهاية الأرب في فنون الأدب" للنويري (١٢٧٨-١٣٣٣م) إلى "معجم البلدان" و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي (١١٨٠-١٢٢٩م) إلى "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير (١١٦٠-١٢٢٣م) إلى "الاستيعاب في معرفة الأصحاب" لابن عبد البر (٩٧٨-١٠٧١م)... آلاف وآلاف الموسوعات التي أصبحت "فناً" من فنون التأليف في حضارة الإسلام، والتي نهضت برسالة "خَلْق العقلية الموسوعية" لدى طلاب العلم والقراء، وذلك حتى لا يصبح العقل سجيناً للتخصص المحدود.

فبعد عصر التدوين مر العلم والفكر -في حضارتنا- بطور "التخصص" الذي انقسم فيه العلم الواحد إلى عدة علوم. ولقد كانت هذه الموسوعات هي السبيل إلى جمع أطراف المعارف في هذه العلوم، لمساعدة العقل المسلم على أن يظل متكاملاً، وأن يتمكن طالب العلم الإسلامي من تكوين "العين للأمة" التي تنقذ العقل من النظرة الأحادية التي تقيم فصاماً نكداً بين صاحبها وبين مختلف عوالم العلوم والمعارف والفنون والآداب...

وبعد نكبة الغزوة المغولية (١٢٥٨م) التي دمرت الكثير من ذخائر المكتبات الإسلامية في الحواضر التي اجتاحها المغول، والتي أحدثت "شرخا" في "الذاكرة الإسلامية"، قامت الموسوعات -في العصر الأيوبي والمملوكي- بجمع شتات الفكر الإسلامي والعلوم الإسلامية والفنون والآداب، فحفظت للذاكرة الإسلامية التواصل مع المنابع والأصول والجذور.

تلك كانت رسالة الموسوعات في الحضارة الإسلامية: الحفاظ على العقل الموسوعي الذي يسترشد بالقسمة الموسوعية التي أرسى قواعدها القرآن الكريم في العقل الفردي والجمعي والحضاري لأمة الإسلام. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.



فجِّروا ينابيع القرآن!

الحرائق تتسعَّر وتمتدّ،
واللهب يلسع الوجوه،
ويأكل القلوب...
ولا مغيث، ولا معين...
والقرآن ينادي:
"إليَّ تعالَوا، ينابيع نورٍ أنا،
إذا تفجَّرتْ أَطفأتْ، وإذا انبجست سقَتْ،
والجحيمَ حوّلتْ، وجنَّات صارت،
والطمأنينةَ نشرتْ، والسكينة أشاعت...
فما بالكم لا تسمعون، وإيّاي لا ترجون..؟!

* * *



الصفح الجميل

دواء الفرد والمجتمع

د. عثمان جمعة ضميرية *

عجيبٌ أمر هذا الإنسان! لقد وهبه الله تعالى من المواهب والملكات ما استطاع به أن يُحلِّق في الفضاء، وأن يغوص في أعماق الماء، وأن يُسخِّر الموجودات، ويستأنس المتوحِّش من الحيوانات... وهو -مع هذا كله- تستفزُّه كلمة عابرة ويثيره خطأ غير مقصود قد يقع عليه؛ فيثور ويغضب وتستخفُّه التوافه من الأمور فيستحمق على عجل ويحاول أن ينتقم لنفسه ويغضب لها ويثأر.

هذا صنف من الناس تجده أمامك في كل مكان وزمان، ولكنه ليس هو الصنف الوحيد بين البشر، فهناك مَن يتعالى على تلك المؤثرات النفسية التي تدفعه إلى الغضب والثأر من الآخرين، ويلجأ إلى الله ﷻ يستمدُّ منه قوة الصبر والحلم، ويستعيذ بالله من نزغات الشيطان، فيكظم غيظه، ويعفو عمن ظلمه، ويتجاوز عمن أساء إليه أو أخطأ معه أو حاول أن يستثيره ويستفزَّه.

هل تستطيع أن تجد إنساناً مبرَّءاً من كل عيب، لا تصدر منه زلَّة تجاهك أو لا يقصِّر في القيام بحقٍّ من حقوقك، وبخاصة في مواقف هي محكُّ الصبر والحلم والكشف عن معادن الرجال، كالتعامل بين الناس



والسفر والحج والزحام وغيرها من المواقف التي تشتبك فيها المصالح وتتعارض؟

إنـك لو ذهبت تدقّق الحسـاب مع أخيـك على كل هفوة وعلـى كل صغيـرة وكبيرة، فلن تظفر بأخٍ لـك وفيّ، خالٍ من العيوب ومبرَّأ من الزَّلَل، وستبقى عندئذ وحيداً فريداً.

ألا ترى كيف حرص الإسلام -أشدَّ الحرص- على توجيهنا إلى العفو، وهو التجاوز عن الأخطاء وترك العقاب عليها سماحةً ويُسراً وطيبَ نفسٍ. وإذا كان العفو من الله تعالى عن العباد هو تَجـاوُزه عن ذنوبهم، فإنه من العباد سـتر بعضهم على بعض.

العفو، سبب للتقوى

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾(الأعراف:١٩٩). هـذا النبـيُّ الكريـم ﷺ، هذا المثَل الكامل والأسـوة الحسـنة، يخاطبـه الله تعالى ويأمـره أن يأخذ العفو اليسـير الممكن من أخلاق الناس في المعاشرة والصحبة، ولا يطلب منهم الكمال ولا يكلِّفهـم الشـاقَّ مـن الأخـلاق، بـل يعفـو عـن أخطائهم وضعفهـم ونقصهم لتمضي الحياة سـهلةً هيّنةً ليّنةً. فالإغضاء عن الضعف البشـري والعطف عليه والسـماحة معه، كل هذا واجب الكبار الأقوياء تجاه الصغار الضعفاء. ورسـول الله ﷺ راعٍ وهـادٍ، ومؤدِّبٌ ومعلِّم ومربٍّ، فهـو أول الناس وأولاهم بالسماحة واليسر والإغضاء.[١]

وكذلك كان عليه الصلاة والسلام؛ فلم يكن يغضب لنفسه قـط، ولم يكن ينتقم لنفسـه قط، ولكـن إذا انتُهكت حرمة من حرمات الله لم يقم لغضبه شيء، يغضب أشدَّ الغضب.[٢] فإن شأن العقيدة والدين خطير عظيم لا يجوز التغاضي والتسامح فيـه، أما ما وراء ذلك من المعاملات الشـخصية والمالية، في الأخذ والعطاء وفي البيع والشراء وفي الصحبة والجوار... فإن المسلم مَدْعُو إلى العفو والتسامح وكظم الغيظ والمغفرة.

فالعفـو سـببٌ لنيـل الأجـر والثـواب، وهـو طريـق -بعد ذلـك- للشـكر: ﴿ثُـمَّ عَفَوْنَـا عَنْكُـمْ مِـنْ بَعْـدِ ذَلِـكَ لَعَلَّكُـمْ تَشْكُرُونَ﴾(البقرة:٥٢).

وهو سـبب للتقوى التي يسـعى إليها المسلم دائماً: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾(البقرة:٢٣٧).

وهـو سـبب للمـدح والثناء، وسـبيل إلى المغفـرة والجنة مـع جملة من مـكارم الأخلاق وحميد الخصال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۞ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾(آل عمران:١٣٣-١٣٤).

إشراقات التقوى

فالتقوى هي القوة النفسـية التي تكظم الانفعال البشـري، وهو الغيظ بما يصاحبه أو يلاحقه من فَوْرَة الدم ومن مظاهرَ عضوية ونفسية، ولا يستطيع أن يغلبه الإنسانُ إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشـراقة التقوى، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلُّع إلى أفقٍ أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات.

وكظـم الغيظ هو المرحلة الأولى، وهي وحدها لا تكفي، فقـد يكظـم الإنسـان غيظه ليحقـد ويضغـن ثم يثـأر وينتقم، فيتحـول الغيظ الفائر إلى أجنَّة غائرة ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين.. وإن الغيظ والغضب -على شدَّتهما- لَأنظفُ وأطهَرُ من الحقد والضغينة. لذلك تستمر الآية الكريمة لتقرير النهايـة الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين... إنها العفو والسماحة والانطلاق.

إن الغيـظ وقـرٌ علـى النفـس حيـن تكظمه وشُـواظ يلفح القلبَ ودخان يغشي الضمير... فأما حين تصفح النفس ويعفو القلـب، فهو الانطـلاق من ذلك الوَقر والرفرفةُ في آفاق النور والسـلام فـي الضمير... فـإذا كان ذلك على أرض المشـاعر المباركة بما فيها من قدسـية المـكان والزمان والعبادة... كان ذلك نوراً على نور وقوَّةً على قوة يهدي الله إليهما من يشاء.

هـذا الأثـر للعفو وهذه المكانة للصفح والتسـامح، جعلتا أبـا بكـر الصدِّيق ﷺ يعيد النفقة على مسـطح بن أثاثة -وكان قريباً لـه- بعد أن انزلق وخاض في حادثة الإفك على الطاهرة المطهـرة عائشـة أم المؤمنيـن رضـي الله عنهـا، وكان أبو بكر يحسـن إليـه وينفـق عليه لقرابتـه ولحاجته. فلما قـال ما قال، حلـف أبو بكر ألاَّ ينفق عليـه ولا يصله كما كان يفعل، فأنزل الله تعالـى قولـه: ﴿وَلاَ يَأْتَـلِ أُولُـو الْفَضْـلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُـوا أُولِـي الْقُرْبَـى وَالْمَسَـاكِينَ وَالْمُهَاجِرِيـنَ فِي سَـبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُـوا وَلْيَصْفَحُـوا أَلاَ تُحِبُّـونَ أَنْ يَغْفِـرَ اللهُ لَكُـمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(النور:٢٢). فعـاد أبـو بكر بالنفقـة عليه والعطـاء قائلاً: "بلى، واللهِ إني أحب أن يغفر لي" (رواه البخاري).

العفو عزٌ وقوة

وأما النبي القدوة ﷺ فقد بلغ القمة السامقة في العفو والصفح، كما بلغها في كل خلُقٍ من فواضل الأخلاق ومكارمها؛ فكان

عفوه يشمل الأصدقاء والأعداء.

إن العفو ليس ذُلاً ولا مهانةً ولا عجزاً أو خَوَراً، ولكنه عزٌ وقوة للإنسان ورجولةٌ وشجاعةُ نفسٍ. فمن يعف عن الخطأ ويتجاوز عن الذنب، أصبح بذلك قوياً شديداً، حيث ضبط نفسه لئلا يستخفَّه الغضب، وأصبح عزيزاً بعفوه، لأنه أكرم من غيره، وقد استطاع أن يرتفع إلى ذلك الأفق المشرق الوضيء وإلى ذلك المستوى العالي النظيف. أمَا قال رسول الله ﷺ: "وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً" (رواه مسلم).

ذلكم هو المسلك النبيل والطريق القويم: ضبط النفس والعفو والاستعاذة بالله من نزغات الشيطان والوقوف عند آيات الله ﷻ. تماماً كما فعل الفاروق عمر رضي الله عنه لما قال له عُيَيْنَةُ بن حصن: يا بن الخطاب، والله ما تقسم بالعدل ولا تعطي الجزل، فغضب عمر حتى همَّ أن يوقع به، فقال له الحُرُّ بن قيس: يا أمير المؤمنين؛ إن الله تعالى يقول: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين، فخلّى عمر سبيلَه وسكت. وكان وقّافاً عند كتاب الله.[٣]

إن العفو مظهر من مظاهر الصحة النفسية واستقامتها بما فيه من محبة وأُلفةٍ وخيرٍ وإحسان وجهادٍ للنفس على الرفق والتسامي والاستعلاء، وبما فيه من معالجة للعدوان بالصفح الجميل والردِّ على الإفراط والتفريط بالاعتدال والاستقامة على الطريق، وهو الطريق والسبيل لاستبدال الأمن بالخوف، والإيمان بالشك، والأُلفة والمودة بالحقد والحسد، والمحبة بالبغض. ■

[*] جامعة الشارقة، كلية الشريعة / الشارقة.

الهوامش

[١] انظر هذه المعاني في "تفسير الطبري" ١٣/٣٠٣ وما بعدها، "تفسير البغوي" ٣/٣١٦، "تفسير ابن كثير" ٣-٥٣٦-٥٣٧، "في ظلال القرآن" ٣-١٤١٩، طبعة دار الشروق.

[٢] عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما خُيِّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها" (رواه البخاري ومسلم).

[٣] أخرج البخاري القصة في "صحيحه" كتاب الاعتصام ١٣/٢٥٠ مع "فتح الباري".



ملامح تربوية في رسائل النور

محمد رشدي عبيد *

عوامل شتى دفعت النورسي باتجاه الفعل التربوي خارجية وداخلية.. غربة حادة على تل يوشع، وجلسة روحية خصبة على ضفاف نهر الفولغا، وتلاوة قرآنية خاشعة في جامع "بيازيد"... كلها أوقدت في ذاته صحوة روحية قادت سفينة حياته نحو تخوم ترضي توقه العميق للخلود. وقد كمّلت الشعرات البيض الزائرة لرأسه مهرجان النور في صحوته بدلالاتها المتوهجة ووجهت سطوة فكره بسوط روحه، كما فَتحت زياراتُه لمقبرة أبي أيوب الأنصاري آفاقاً جديدة في تصوره الغيبي، أدمجته في الفضاء الآخر بكل إيحاءاته وأسراره. أما القرآن فكان يصنع في داخله معماراً جديداً أصيلاً، ويضرم نار توحّده ويؤصل في ذاته الحنين إلى تبليغ الرسالة.. فطبيعته الشاعرية المرهفة المتوزعة بين التوق اللامحدود وبين شدّ الواقع المحدود، وصلاحه الذي أزهده في زينة الأرض الخادعة، وميله الجارف للتبليغ، ألحت عليه ليتجه هناك إلى "بارلا" ليحضر أدوات صناعة تاريخ الإيمان في زمانه ومكانه.. فكان رجل القدر حقاً...

المنهج التربوي عند النورسي هو الحياة والإنسان

كان النورسي يعشق الحياة عشقاً هائلاً ويراها أكمل ثمرة للوجود، كما كان يذوب في حب الإنسان ويود لو فدى سعادته ومصيره بنفسه.

الإنسان عند النورسي ليس هيكلاً مادياً مجرداً أو عقلاً منطقياً بارداً، بل إنه كائن حساس فريد ومتميز، واسع الدوائر الوجودية، ذو خصائص عقلية وروحية ووجدانية وأخلاقية



شـاملة، خليفـة فـي الأرض، وهـو مبتلـى بتوتـر عميـق بيـن محدودية إمكاناته ولانهائية آماله في الكمال والخلود.

ويتميز منهج النورسـي التربوي بعدة سمات منها: شمولية التنـاول، والمنهجية، والأصالة التي عجز أدعياؤها الوضعيون عـن التوفيق بينهـا وبين المعاصرة لقيـام مناهجهم على انتقاء أهوائي، أو اجتهاد غير قائم على منهج متسق وموحد، وضمن ضوابـط أصوليـة خالصـة وفهـم عميـق لـروح الأمـة وفطرة الإنسـان، والواقعيـة التـي تنظر إلى الإنسـان كما هـو ولكنها تدفعه إلى المثل والنموذج بيسر وحكمة وتبصر.

أبعاد التربية عند النورسي

البُعد الإيماني: لقد أدرك النورسي أن الإنسان كائن ميتافيزيقي، ولا يُشـبع حاجاتِـه العقليـة والروحية والعاطفيـة إلا التوحيد. فأية نظرية مادية أو عقلية أو علمانية لن تقدر على إشباع هذه الحاجـة العميقـة. وذلك ما أكده كثير من فلاسـفة العلم مثل؛ كاريل، رينيه دوبو، سـوليفيان، جان فوراستيه... وعلماء نفس واجتماع معاصرون مثل؛ وليم جيمس، سوروكين، وغيرهم...

لقـد أدرك النورسـي أن الفـرد لابـد أن يعبد إلهـاً، وذلك حـق أثبته الواقع الفكري. فقد عبد كثير من الفلاسـفة بشـكل مـن الأشـكال آلهـة شـتى؛ التيـار الحيـوي عند "رجسـون"، والتطور الخلاق عند "دارون"، والروح المطلق عند "هيجل"، والديالكتيـك فـي فكر "ماركس"، والمجتمـع الذي ألّهه "دور كايم"، والجنس الذى قدسه "فرويد"، ووجود الفرد الذي بالغ "سارتر" في توثينه... وما هذه المصطلحات سوى أسماء تعبر عن أفعال وسنن كونية أو إنسانية أو حياتية أو اجتماعية خلقها الله ﷻ وأوجدها ضمن مشيئته الكونية.

لقد ردم النورسـي الأغوار الروحية العميقة لإنسان زمانه، بعـرض فكرة القرآن عن مبدأ الإنسـان ومصيره وغاية وجوده وقدره، وعن أسرار الكون والحياة. لقد أنقذ الإنسانَ من مشاعر فقدان الهوية، والشـعور بانقطاع الجذور، والقلق من المصير، والرهبـة من القدر، والألـم، والموت. لقد قدم له الإيمان بالله واليـوم الآخر والغيب القرآني؛ فجعل منه إنسـاناً آخر يشـعر بالطمأنينة والسـلام النفسي، والانسجام مع الكون ومخلوقاته والثقة بالله ﷻ، كما أنقذه من التوحيد التقليدي البارد وأشـعل روحـه بالإيمـان الحقيقي الفعّـال المفجر للطاقـات المبدعة، كما أعاد لمعنى العبادة حيويته وشـموله ليسـتوعب كل تنفيذ صائب ومخلص لحكم شـرعي، وكل فعالية حياتية أو عملية ملتزمة بمنهج الله أو متوجهة في مقاصدها إلى الله ﷻ.

وكانـت أسـماء الله الحسـنى وسـيلته لتحريـر الفكـر من الرتابـة والغفلة والتقليد والجمود، وتحرير الحس من التكرار والصور المملة، وتحرير الوجدان من غبار السـآمة والمشاعر التافهـة لتعيد له دهشـته الأولـى البكر للكون البديـع، ولتنقذ العقـل من السـقوط فـي مهـاوي المحاكمات العقليـة الباردة للوقائع اليومية، وتفتح له أفقاً غيبياً ومشـهوداً واسـعاً لتفسـير هذه الحقائق... وهكذا أنقذ الإنسـان من الإشـكالية المتأزمة في الضمير الإنسـاني بيـن الأمل والألـم، والواقع والطموح، والحريـة والضـرورة، والعشـق والفـوات، والميـل للخلـود ومناوشات الزوال، والوجود والعدم، والواقع والمثال، والفرد والمجتمع، والتوافق والصراع.

البُعـــد العقلي: فقد فعـل النورسـي الكثيـر.. وممـا فعله تجريـد الفكر من المعلومـات غير الحيوية وغير العملية وغير الحقيقيـة، وأفسـح المجـال لمقابلاتها الإيمانية وجعل نفسـه نموذجـاً لذلك التجريـد. كما وفق في التوفيـق العقلي بين ما تدركـه الحواس وما لا تدركه، وذلـك بغرس الإيمان بالغيب في الوعي البشـري دون تصادم مع واقعات الحسّ، ومقررات العقـل المنطقـي السـليم ونتائـج العلـوم التجريبيـة اليقينيـة القطعيـة، فوسـع من أفق الواقـع المكانـي والزماني في وعي الإنسـان. وقـد أزاح أمامه بعون القرآن كل شـبهات الماديين وأوهامهـم وظنونهـم وأهوائهـم. ومـن أفضل مـا وضعه من شروط للتوصل إلى الحقيقة، هي الشروط الوجدانية والعقلية والروحيـة والأخلاقيـة؛ كتجنـب الغفلـة والمعصيـة والغرور والتعصـب والوهم والنفي اللامسـؤول والافتراض أو التنظير غير العلمي أو غير المتماسك.. كما دعا إلى تنقية كتب التراث من التفسيرات والآراء التي دحضها العلم بيقينياته.

البُعد الأخلاقي: كان من أبرز ما أصّلـه؛ التهوين من قيمة الشـر المتفـش في عصـره باعتباره شـيئاً عدمياً وسـلبياً. وقد عمـق مفـردات أخلاقيـة عديـدة؛ كالصـدق والأمـل والصبر والشـجاعة والتضحيـة... وجعلهـا وقـوداً لازدهـار الإنسـان الأخلاقي، كما رسـم خطوطاً كثيرة لوصول الإنسان إلى رضا ربـه؛ كخط الشـكر والتذلل والتوكل والحـب والإخلاص... وحلّ الإشـكالية المؤذية بين ميل الإنسـان إلـى الانتماء لذاته أو للمجتمـع، وأقام طلابـه على معادلة مريحة متوازنة بينهما، وقد قوى اللحمة الاجتماعية بدعوته لطلابه للتسامح والحب والتعاون وعدم الإسـراف والتورط في المطالب الكمالية التي



يختلقها الرأسماليون. كما وضع أسساً موضوعية جادة للحوار، ورسم قواعد لمنع الاختلاف أو تجاوزه أو تخفيفه. وباختصار فقد سعى إلى بناء مجتمع يقوم على الحق بدلاً من القوة، وعلى ابتغاء رضا الله ﷻ بدلاً من التزاحم على طلب المنافع. ويقوم بناؤه على البر والتقوى لا على الصراع والجدل، وتشد لبناتِه الأخوةُ الدينية الجامعة، ولا تشتته العنصريات، وتهذب رغبات الإنسان فيه ولا تطلقها بعشوائية وفوضوية.

البُعد العاطفي: أدرك النورسي أن العواطف لا تغتال ولا تقتل ولا تصادر، بل تحدّد لها الضفاف وتوجّه للبناء وتؤطر بإطار من الحق والخير والعدل: "نحن لا نقول لك لا تحمل ودّاً ولا حباً، إنما نقول اجعل محبتك لما ذكرتَه في سبيل الله ولوجهه الكريم". وأشار إلى مكاسب التوجه إلى الله ﷻ في الحركة العاطفية الإيمانية والأخلاقية والنفسية والمادية...

فإذا كانت اللذة العاطفية السائبة ممتهنة بالابتذال الحسي، ومتنغصة بألم ترقب الزوال وتوقع الفراق، وتوجّس الفقد، وغصص الفوات، ووخز أشواك الغيرة والحسد، وحسرات عدم تبادل العاطفة بمثلها صفاءً ودواماً. فإن اللذة العاطفية المنضبطة بالإيمان لذة نقية شفافة دائمة.

التربية الجمالية في فكر النورسي

إحساس الإنسان بالجمال فطري أصيل. والجمال في الكون أصيل -كذلك- وكلي وشامل وغائي. ذلك أن كل شيء في الكون ينطوي على الخير وفيه جمال وحسن. و"لمسات التجميل والتحسين رحمة مُرادة"، وأن هناك تفاضلاً في درجات الحسن، ويميل الإنسان إلى الأحسن والأجمل.. أما اللذات الجمالية فهي تتسم بالتنوع والشمول؛ فهناك لذات حسية سمعية وبصرية وشمية وذوقية، وهناك لذات جمالية فكرية وروحية وعاطفية تتذوقها العقول والأرواح والقلوب. والاستمتاع بالجمال المشروع فيه فوائد جمة؛ إذ تَرِقّ بها أحاسيس الإنسان وتتهذب مشاعره وتطهر أفكاره وتصفو نفسه، وتسمو بعد ذلك نقية طاهرة إلى خالقها.

الإنسان عند النورسي ليس هيكلاً ماديا مجرداً أو عقلاً منطقياً بارداً، بل إنه كائن حساس فريد ومتميز، واسع الدوائر الوجودية، ذو خصائص عقلية وروحية ووجدانية وأخلاقية شاملة، خليفة في الأرض، وهو مبتلى بتوتر عميق بين محدودية إمكاناته ولانهائية آماله في الكمال والخلود...

ويحث النورسي الفرد المسلم على الانضباط بالضوابط الشرعية في التمتع بالجمال، لتتكامل لذته وتنفتح أمامه آفاق ملونة رحبة للحسن، ولتأمن لذته من ألم التكدير وألم خوف الزوال.

بين الأدب القرآني والأدب الغربي

وفي مقارنة لطيفة بين الأدب القرآني، والأدب الغربي تكشف لنا جمال الأول وفضل وعاهات الثاني وسلبياته. يقول لنا النورسي ما معناه: "إن الأدب الغربي يمجّد القوة ويؤلّه الطبيعة ويعبّد الإنسان لها، وهو يثير في القارئ معاني العبثية والضياع وفقدان الهوية والانتماء، ويؤصّل في وجدانه مشاعر العزلة والوحدة في الكون. وهو بشكل من الأشكال أو وفقاً للذوق الإسلامي، غير منضبط أخلاقياً".

لذا فهو "قد وضع لساناً كاذباً في فم البشر وركب عيناً فاسقة في وجه الإنسان، وألبس الدنيا فستان راقصة". ولأنه محروم من تذوق معاني العشق الحقيقي أو الحب الخالص، فإنه يغرز ذوقاً شهوياً عارماً في النفوس ويشبّه لقارئه الشمس بممثلة شقراء.

ومن سلبيات منظوره للواقع، الرؤية المادية الضيقة للواقع والمتجاهلة لأبعاده الغيبية، فهو ينكر غيب الكون أو يتعامل معه تعاملاً فلسفياً بارداً أو تجريبياً نفعياً. ويملأ تصور البعد الغيبي في الذات البشرية بالظنون المزعجة والأوهام الباطلة.. وأدبه الكلاسيكي الذي يركز على الأساطير الكونية والتاريخية، لم يوفق في الوصول إلى مستوى الأدب العالمي المؤثر من ناحية المضمون، في الأقل للتباين الشاسع بين منظور الإنسان المعاصر للعلم والعالم والقيم، وبين المنظور اليوناني أو الروماني الغابر المثقل بالرؤى البدائية المتخلفة للفكر والكون والحياة وأخلاقياتها:

"وأنَّى للميت أن يهب الحياة" كما يقول النورسي. وهو واقع في تناقض حادٍ بين أخلاقياته المزعومة ومعقوليته، وبين تصويره المثير للجوانب الهابطة في النفس والمجتمع. هذا التصوير الذي ينسف رقابة العقل وأحكام عالم الشعور، ويثير الهوى الكامن في نفس القارئ الذي لا تغني في تلطيف إثارته القيم الباردة غير الملزمة النسبية والمهزوزة والخجلى،

التي يبثها الأديب الكلاسيكي هنا وهناك على صفحات إبداعه.

أما المشاعر التي يثيرها الأدب الغربي، فهي إما حزن كثيف معتم لا تخترقه أضواء الأمل في المصير الأخروي، أو اللقاء المتجدد مع الناس والأشياء، أو السعادة في عالم آخر... أما الفرح الذي تخلفه، فهو يتسم بعدم البراءة ويدفع إلى مزيد من التجاوز على الآخرين وعلى الحق، وتكدره توقعات الفراق وآلام الفوات ومشاعر الندم... وهو بهذه الأوصاف يشير بشكل مجمل إلى سلبيات كل من المذاهب الغربية الفنية الآتية؛ الكلاسيكية، والوجودية، والواقعية، والطبيعية.

وقد وضع النورسي أدب القرآن قبالة ذلك الأدب الغربي، فبدا عملاقاً رصيناً متوازناً إنسانياً أخلاقياً شاملاً... فهو أدب توحيدي يخلق الطمأنينة، ولا ينصب علامات الاستفهام على طريق القارئ، فلا حيرة ولا شك ولا اغتراب... فإنسان هذا الأدب قد تكشفت له دلالات القدرة والحكمة والعناية والرحمة واليقين في هذا العالم، وانشدَّ بكل وعي واختيار إلى منظومة الحقائق الإسلامية المتناسقة والصادقة والشاملة، وامتلأت نفسه رضاً وأُنساً ووداً وسكينة.

أدب القرآن ذو منظور أخلاقي. إنه لا يحرك ساكن الهوى، وينشُد الحق والجمال الخالص ويتبنى الصدق. فرحه فرح "لطيف بريء نزيه" يبعث على الفضيلة ويقود إلى الكشف ويومئ بأصبع النور إلى عالم الفرح الشامل والغبطة الجذلى. وحزنه رفيع شفاف خالص متوجه إلى السماء مترع بالرجاء مليء بوعود اللقاء... إنه أدب الحقيقة بمعناها الشامل لوحي الله ﷺ واجتهاد الإنسان، ومنظوره للواقع يتسم بالشمول، إذ يستوعب المحسوس المجرب والمخبوء المغيب في الكون والحياة والإنسان. وهو يدعو الإنسان إلى التعامل مع هذا الواقع الكلي بمعادلة اليقين.

التربية البدنيّة

لم تسمح حالات النفي والإقامة الجبرية والسجن التي عانى منها النورسي، بالاهتمام الكافي بهذا البعد التربوي بشكل متكامل، ولم تسمح لروحه الجهادية المتوثبة وديناميتها الجسدية المتدفقة التي كانت قد وجدت لها مجالاً رحباً في الجهاد ضد العدو أن تنطلق فيما بعد لإعداد جيلٍ أقرب إلى التكامل المثالي. وحسبه تأكيده على نقاط مهمة في التربية الجسدية منها: ضرورة تحديد كمية الطعام المتناول والنهي عن الإسراف، والربط بين السلوك الأخلاقي المنحرف والأمراض العضوية، والتركيز على أهمية العلاج المادي للأمراض، والإرشاد إلى العبادة، وبيان أهميتها لسلامة الجسد، والإشارة إلى أهمية الطب الروحي والنفسي في الشفاء من الأمراض، والإسهاب الرائع في بيان حِكَم الأمراض المتنوعة.

التربية الإرادية

احترم النورسي إرادة الإنسان، ونظر إليها نظرة قرآنية وسطية بين المذاهب الفلسفية التي تلغي هذه الإرادة تماماً، أو تضخمها حتى تتحدى الضرورات القدرية البشرية والكونية الصامدة. فهي إرادة جزئية يمكن تقويتها بالإيمان المتمحور كنقطة استناد واستمداد، وبممارسة التدريب الإرادي الخاص بالامتناع عن السلوك الفطري المباح، والتدرب على الأعمال الإيجابية، والتكيف مع الصبر على الطاعة والبلاء وعن المعصية...

وكان النورسي بالوعد الذي كان يشير إليه في السعادة الصافية الدائمة في الآخرة وبالتلويح بالتوبة في حالة الوهدة، يمنع الإرادة من الترهل والموت. وبأساليبه الإيحائية المؤكِّدة على كرامة الإنسان وعزته، وتهافت قوة أعدائه وتأييد الله ﷻ للمؤمنين يزيد الإرادة اشتداداً. وببيانه لحكم المصائب يزيد الاختيار انتعاشاً، كما كان لمنطقه العقلي المقنع وخطابه الأدبي الممتع، وما كان يرشد إليه من الأشكال الشعائرية والصيغ الروحية؛ كالاستعاذة من الشيطان والاستغفار وإهمال الوساوس وعدم بعثرة قوى الصبر في جوانب غير أساسية وخيالية... دور في إدامة نشاط الإرادة الحرة. أما تحذيراته من اليأس والقنوط والطمع وحب الظهور والخوف والحزن والاستعجال والاستبداد بالرأي والتقليد والتسويف والراحة والإسراف والرياء والعجب والأنانية... فكانت تصوغ من الإرادة خلقاً آخر يتحدى الوهن والتآكل والتفتت.

ومن الآداب اللطيفة التي التزم بها النورسي في فعله التربوي بدؤه بنفسه باستكمال نواقصها ثم الشروع في عمله، والاستعلاء على المديح والنقد، ونقد الظواهر غير الصحيحة بالبرهان والحوار، واتخاذ التسامح شعاراً له، وعدم أخذه أجراً على تعليمه، ومخاطبته الناس على قدر عقولهم، وعدم انقطاعه عن التربية حتى في السجن الذي سماه "المدرسة اليوسفية". ■

(*) كاتب وباحث عراقي.





آخر حُرّاس الأقصى

صالح كولن *

هـ

- هنا رأيتُه يا محمد، هنا في هذا الفناء...

كان يشير إلى مكان في مجسّم المسجد الأقصى...(**) بصوت حزين كرر جملته:

- نعم، هنا رأيتُه... وامتلأت عيناه بالدموع...

بدأ حفيده محمد ينظر إليه وينظر إلى المجسّم بغرابة دون أن يجد معنى لذلك... كان جده يبكي، وكانت دموعه تسيل وكأنها ينبوع يتسلل من بين الصخور وينحدر بهدوء على لحيته البيضاء الناصعة. كان يشير إلى المكان وهو شارد في تفكيره وغارق في تأملاته...

سأل محمد ببراءة:

- ماذا حدث لك يا جدي؟!

لم يكن جده يسمعه، إذ كان مستغرقاً في عالم الماضي...

انتظر محمد برهة ثم هز يد جده برفق وقال:

- هل أنت بخير يا جدي! ما بك؟ ماذا حدث لك فجأة؟!

تنفّس الجد الصعداء وعيناه على المجسم... وبعد فترة التفت إلى حفيده وحاول أن يبتسم رغم الدموع التي تملأ عينيه، ولكنه لم يفلح... تنهد من الأعماق مرة أخرى ثم قال:

- هذا المجسّم، أعادني خمساً وثلاثين سنة إلى الوراء يا بني...

لم يفهم الحفيد الواعي ما يقصد جدُّه من هذه الكلمات...

تمتم العجوز وهو يمسح دموعه:

- نعم... سنوات طويلة قد مضت كلمْح البصر...

سأل الحفيد محاولاً فهم ما يقول جده...

- ماذا تقصد يا جدي، أيّ سنوات؟!

ركع الجد بهدوء متكئاً على عصاه، ثم جلس مقابل مجسّم المسجد الأقصى وقال بحرقة قلب:

- قبل اثنتين وثلاثين سنة، في عام ١٩٧٢... كنت صحفياً شاباً، وكان أبوك في ذلك الوقت مثلكَ في الحادية عشرة من العمر... في تلك السنة كان بعض السياسيين ورجال الأعمال قد قاموا بزيارة رسمية للأراضي الشريفة، وكانت مهمتنا نحن كصحفيين، مراقبة التطورات والأحداث. تركتُ أباك وعمك وجدتك عند أبي، حتى إن أبي رحمه الله كان يقول دائماً: "هذا الولد لم يجد عملاً مناسباً حتى الآن، سيُشقي نفسه وسيُشقي عياله معه"... كانت الزيارة ستستغرق أربعة أيام... وصلنا القدس مساء يوم حار من شهر أيار... جرت اتصالات رسمية...

وفي اليوم الرابع نظموا لنا جولة إلى الأماكن التاريخية والسياحية في هذه الأراضي... كنت متلهفاً لرؤية القدس والمسجد الأقصى... كان الجو حارقاً وكان جسمي يتصبب عرقاً... وصلنا إلى المسجد الأقصى ضمن قافلة... كنتُ منفعلاً غاية الانفعال... حتى إني عندما رفعتُ الكاميرا لأصوّر شعرتُ بأن يدي ترتجف... صعدنا الدرجات التي تراها هنا... هذا الفناء العلوي يسمونه فناء الاثني عشر ألف شمعة، لأن السلطان سليم الأول عندما فتح القدس كان قد أشعل في هذا الفناء اثني عشر ألف شمعة، وصلّى الجيش العثماني صلاة العشاء في ضوء تلك الشموع...

فقاطعه الحفيد وقال بحماس:



- كان أستاذنا يقول لنا إن العثمانيين فتحوا بيت المقدس عام ١٥١٦ للميلاد.

- نعم... هذا صحيح يا بني...

- وماذا حدث معكم في المسجد الأقصى يا جدي؟!

تابع الجد بأسى:

- بعد ذلك لفت نظري رجل في زاوية من زوايا الفناء... رجل في التسعينات من العمر... وعليه بذلة عسكرية قديمة جداً ومليئة بالرقع... حتى إن بعض هذه الرقع قد أعيد ترقيعها مرة أخرى... وكان يضع على رأسه أنورية... كان واقفاً هناك بشموخ وإباء... عرتني الدهشة...

- إيه يا جدي، ومَن كان ذلك الرجل؟!

- وأنا أيضاً أصابني الفضول لمعرفته... قلت في نفسي: لماذا يقف هذا الرجل تحت الشمس الحارقة هكذا... ثم سألت الدليل عنه، فقال إنه منذ أن وعى وهو يرى هذا الرجل في هذا المكان يقف كالتمثال حتى المساء كل يوم... لا يتكلم مع أحد ولا يردّ على أحد... يقف منتصباً فقط، ولعله مجنون... كان يصمه بالجنون، أما أنا فقد ازدادت لهفتي لمعرفة هذا الرجل والسبب الذي يجعله يقف تحت الحر الشديد ها هنا... اقتربتُ منه بدافع الفضول الصحفي... كان لباسه قديماً جداً، باهت اللون، ولكنه كان نظيفاً...

- إيه يا جدي وماذا حدث بعد ذلك؟!

- كنتُ متردداً هل أحادثه أم لا... ثم اقتربت منه جيداً... لاحظ اقترابي، ولكنه لم يبدِ أية ردة فعل... قلتُ: السلام عليكم يا عمّ... أدار وجهه نحوي قليلاً... تفحصني بطرف عينيه ثم قال بصوت خافت مرتجف: وعليكم السلام... اقشعرتْ أناملي فجأة، قلتُ في نفسي: يا إلهي، إن نبْرتَه تركية... أيعقل أن يكون رجلاً تركياً!.. ولكن ما الذي جاء به إلى هنا!؟ إلى هذه الديار البعيدة عن بلاده!؟ فسألتُه بفضولٍ شديد:

- من أنت وماذا تفعل هنا يا عم!؟ ردّ بصوت خافت مرتجف:

- أنا... أنا العريف حسن، رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الكتيبة الثامنة، الطابور السادس والثلاثين، من الفرقة العشرين في الجيش العثماني...

كانت الرجفة قد اختفت من صوته أثناء تقديم نفسه. ولكنه أعاد تعريف نفسه مرة أخرى وبصوت أقوى من ذي قبل وكأنه يريد إثبات وجوده ومتانته:

- أنا العريف حسن، رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الكتيبة الثامنة، الطابور السادس والثلاثين، من الفرقة العشرين في الجيش العثماني...

فأصبتُ بالدهش الشديد مرة أخرى، وانطلقت الكلمات من بين شفتيّ دون إرادة:

- ماذا؟.. أنتَ عثماني؟!.

قال بكل فخر: "نعم"...

- وماذا تفعل هنا؟!.

عندها بدأ قصته الحزينة التي لن أنساها مدى حياتي:

- لقد هاجم الإنكليز كتيبتنا في الحرب العالمية الأولى من جبهة القناة... حيث كان الجيش العثماني العظيم يحارب في جبهات عديدة رغم قلة المعدات الحربية لديه وإمكاناته الضيقة. وفي نهاية المطاف غُلب جيشُنا في القناة واضطر إلى الانسحاب... كانت بلاد أجدادنا الأمجاد تسقط واحدة تلو الأخرى... وعندما احتل الإنكليز القدس، ظلّتْ وحْدتُنا في القدس كقوة "حرس مؤخرة الانسحاب"...

فقاطعتُه بالسؤال:

- وماذا تعني وحدة حرس مؤخرة الانسحاب؟

- ترك العثمانيون حرساً لحماية هذه البلدة المباركة من السلب والنهب إلى حين دخول الإنكليز إليها؛ حيث كانت الدول قديماً عندما تحتل مدينةً، تطلب من الدولة المهزومة أن تبقي حرساً مؤخرة لئلا يثور الناس ضدها.. ومن هذا القبيل، طلب الإنكليز عند احتلالهم القدس، أن تُبقي الدولة العثمانية قوة لهذا الغرض.. وهذه القوات التي تبقى في مؤخرة الجيش يقال لها قوات "حرس مؤخرة الانسحاب"...

- ثم ماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟

- ثم استطرد يحدث قائلاً: نحن بقينا في القدس وكنا ثلاثاً وخمسين شخصاً كحرس مؤخرة... وأثناء ذلك وصلَنا خبرُ تسريح جيشِ الدولة العثمانية العلية باتفاقية "موندروس"... عندهاَ قال لنا اليوزباشي (النقيب): "أيها الأسود، إن الدولة العثمانية العلية في ضيق كبير... جيشنا المجيد يُسَرَّح... والقيادة تستدعيني إلى إسطنبول... يجب أن أذهب وألبّي الأوامر، وإلا أكن قد خالفتُ شروط الهدنة ورفضتُ الطاعة، فمن أراد منكم العودة إلى بلاده فليفعل... ولكن أقول لكم إن القدس أمانة السلطان سليم خان في أعناقنا، فلا يجوز أن نخون هذه الأمانة أو نتخلى عنها... فنصيحتي لكم أن تبقوا هنا حراساً، كي لا يقول الناس: "إن الدولة العثمانية تخلت عنّا وغادرت"... وإن الدولة العثمانية إذا تخلّت عن القدس -أول قبلة لفخر الكائنات سيدنا محمد ﷺ- فإن ذلك سيكون



انتصاراً حقيقياً لأعدائنا... فلا تضعوا عزّة الإسلام وكرامة الدولة العثمانية تحت الأقدام"...

فبقيتْ وحدتُنا كلها في القدس... لأننا ما رضينا أن يقول الناس "تخلت الدولة العثمانية عنا"... أردنا ألا يبكي المسجد الأقصى بعد أربعة قرون... أردنا ألا يتألم سلطان الأنبياء نبينا محمد ﷺ... لم نرض أن يستغرق العالم الإسلامي في مأتم وحزن... ثم تعاقبت السنون الطويلة ومضت كلمح البصر... ورفاقي كلهم انتقلوا إلى رحمة الله تعالى واحداً واحداً... لم يستطع الأعداء أن يقضوا علينا، وإنما القدر والموت... وها أنا ذا العريف حسن لا زلتُ على وظيفتي حارساً على القدس الشريف... حارساً على المسجد الأقصى...

امتلأتْ عيناه واختلطت دموعه بعَرَقِه الذي كان يتصبب من جبينه، إذ كانت تجاعيد وجهه تحتضن هذا المزيج الطاهر وكأنها لا تريد أن تُسقِط حتى قطرة واحدة منها على الأرض احتراماً لهذا البطل وتقديراً لصموده... ثم نظر إليّ نظرة رجاء وقال:

- عندي طلب منك يا بني... احتفظتُ بهذه الأمانة منذ سنوات طويلة... هل توصلها إلى أهلها؟.. أجبتُه:

- بكل تأكيد، طلبُك أوامر يا عم حسن... قال:

- يا بني... عندما تعود إلى الأناضول اذهب إلى قرية "سنجق توكات"، فهناك ضابطي النقيب مصطفى الذي أودعني هنا حارساً على المسجد الأقصى، ووضعه أمانة في عنقي... فقبِّل يديه نيابة عني وقل له: "سيدي الضابط، إن العريف "حسن الإِغْدِرلي" رئيس مجموعة الرشاش الحادية عشرة، الحارس في المسجد الأقصى، ما زال قائماً على حراسته في المكان الذي تركته منذ ذلك اليوم، ولم يترك نوبته أبداً... وإنه لَيرجو دعواتكم المباركة"...

- فقلت: "أمراً وطاعة يا عم، سأحملُ سلامكَ بكل سرور". كنتُ أحاول إخفاء دموعي تارة، وكنت أكتب ما يقوله تارة أخرى...

ثم سألني عن المدينة التي قدمتُ منها. فقلت: "من إسطنبول"... فأشرقتْ على وجهه ابتسامة ثم قال لي: "إسطنبول، إذن إنك قادم من دار السعادة... قل لي، ما أحوال الدولة العثمانية؟.. سكتُّ ولم أستطع أن أخبره أن الدولة العثمانية قد انهارت ولم يبق من أراضيها المديدة التي تشهد شروق الشمس وغروبها إلا بقعة صغيرة وهي تركيا... لم أستطع أن أخبره بما فعله الإنكليز والأرمن والروم وفرنسا... ولم أستطع أن أقول له إننا لم نقدر على الصمود أمام أعدائنا مثلكم... لم أستطع أن أقول له إن الذين كانوا بالأمس يتلقون الأخلاق والفضيلة والعلوم منا، أصبحوا اليوم هم يعلّموننا... ولكن استطعتُ أن أقول له فقط: "بخير... دولتنا بخير"...

عندها سألني بفضول:

- إنْ كانت دولتنا بخير لِمَ لا تأتي وتخلّص القدس من هؤلاء الكفرة؟!

فلم أجد ماذا أقول... إنما كل ما استطعت قوله: ستعود إن شاء الله ستعود يوماً... ثم أقبلتُ على يديه الخشنتين الطاهرتين وقبّلتهما بحرارة... ثم قلتُ: اسمح لي يا عم حسن، عليّ أن أذهب، أرجوك لا تنسانا من دعائك، اعتن بنفسك جيداً، أستودعك الله... فقال: رضي الله عنكَ يا بني، بلّغ سلامي الأناضول... وسلّم على الدولة العلية...

- وماذا حدث بعد ذلك يا جدي؟!

عدتُ إلى القافلة وما زالت الدهشة تغمرني... بدا وكأن تاريخ أجدادنا المجيد عاد حياً وانتصب واقفاً أمامي... كانت الفرص الضائعة، والأعمال التي لم تؤدَّ، وعدم الشعور بالمسؤولية، تنزل على رأسي كالصاعقة... ما زال جنديٌّ من جنود الدولة الغالية على قلبي، يقوم بحراسة القدس، وما زال منتصباً هناك بوقارٍ ومهابةِ الدولة العثمانية!..

شرحتُ للدليل خطْب العريف حسن، ثم أعطيتُه عنواني وطلبتُ منه أن يخبرني عن أحواله ما استطاع إليه سبيلا...

- وماذا حدث بعد عودتكَ إلى تركيا يا جدي؟!

- كان عليَّ أن أوفي بالعهد... فذهبتُ إلى مدينة "توكات"... وبعد جهد جهيد عثرتُ على عنوان النقيب مصطفى... إلا أنه كان قد توفي منذ سنوات طويلة... لم أستطع أوفي بعهدي...

تعاقبت السنوات... وفي يوم من الأيام في عام ١٩٨٢ وأنا أعمل في وكالة الأنباء، جاءتني برقية من القدس الشريف، فقلتُ في نفسي: "غريب، ومِن مَن؟! فوجدتُ أنها قد أُرسلتْ من قِبَل ذلك الدليل... فيها بضعة كلمات، لكنها تلخص تاريخاً مجيداً فيه شهامة وشجاعة وعز وكرامة:

"لقد توفي اليوم آخر حُرّاس الأقصى"... ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: محمد ماهر قفص. وهي قصة حقيقية وقعت في القدس الشريف مع الصحفي التركي "إلهان بردكجي" رحمه الله.

(**) مجسّم المسجد الأقصى؛ يوجد في متحف المصغرات بإسطنبول، حيث يُعرَض في هذا المتحف مصغرات معالم تركيا والعالم أجمع، وتبلغ مساحته ٦٠ ألف متر مربع.





هؤلاء المجانين

أديب إبراهيم الدباغ *

يبقى الفكر الرفيع حبيساً في ذهن صاحبه لا يثير الانتباه، ولا يجلب الأنظار ما لم يتحول إلى لهب ترتفع ألسنته إلى عنان السماء، مخترقةً سود الليالي ومشعلةً النار في هشيم الظلمات. وهنا ينتبه إليه الناس، ويقبلون عليه، ويقبسون منه، ويأخذون عنه، ويستضيئون به، ويتدافعون لحمل تبعاته، ونشر أفكاره، ويمتلئون حماسة بالانتصار له والدفاع عنه والعيش من أجله.



فالعيش في هذا الفكر الملتهب، والعيش من أجله ولأجله، يحتاج كذلك إلى رجال من ذوي الإرادات الملتهبة، والوجدانات المشتعلة، والنفوس الفوَّارة، والعقول الوثَّابة، والإدراكات العالية، والفهوم الفطنة الذين إذا مشوا تواثبوا، يسابقون الزمن، ويختصرون المسافات، لا يتعبون ولا يَمَلُّون، ولا يركنون لراحةٍ، ولا ينعمون بدفء فراش أو ملازمة زوجة وأولاد... شعارهم "خَلُّوا سبيلنا ودعونا نضرب في أرض الله"... يكسرون العادات ويخترقون المألوفات ويلوون رقاب الأيام إلى حيث يريدون.

إن نار الوجد الإلهي تحرق أفئدتهم وتأكل أكبادهم، فيلوبون من لواعج ما يجدون فلا يستقربهم مقام ولا يأنسون بحال. إنهم حراك يتدفق، وعمل دؤوب تنتهي الأزمان ولا ينتهي لهم في كل يوم شأن... يأخذون بأيدي المنهزمين، ويجبرون كسر المنكسرين، ويُنهضون المنسحقين، ويزرعون الأمل في اليائسين، ويُطلِعُونَ شمس الهدى في ظلماء التائهين...

إنهم جنود القدر وأنصاره، يستخدمهم في رسم خطاه، وإنفاذ أمره، وتحقيق غاياته، وإشعال العزائم، وإتيان الخوارق، وتخطي العوائق، والجري وراء الآتي من الزمن، والقادم من المستقبل... لا تستنفدهم آلام اليوم، ولا توهن عزائمهم فواجع الحاضر... فلهم من الإيمان واليقين ما يجعلهم يمشون فوق الآلام، ويتخطون جسور الأوجاع إلى الهدف المنشود والغاية المبتغاة... إنهم يشكلون ضمير العالم كما ينبغي أن يكون، وعقل الخليقة التي تريد الحصانة من الجنون... إنهم درجات متحركة في سلم الوجود لمن يريد الصعود، وشعل محبّة توقد مجامر الخلود في الإنسان الموعود...

ولعل هؤلاء الذين استعرضنا بعض ملامحهم في السطور السالفة هم "المجانين" الذين عناهم الأستاذ "فتح الله كولن" متضرعاً إلى الله تعالى أن يمنحه قلة منهم يجدون في بطولة السموّ واحداً من مطامحهم العالية، ثم لا يكفُّون عن ملاحقة قلوبهم الفتية المتفلتة من أقفاصها نحو ذرى العظمة الإيمانية من خلال الفكر الذي يمتثلون ويجهدون لجعله تاجاً يزين هامة البشرية التي تآكلت تيجانها منذ زمن بعيد.

إن شعور أجيالنا الطالعة بالانهزام العقلي يشكل اليوم واحداً من إحباطاتنا التي تشلُّ قدراتنا العقلية، وتعيقها عن النهوض من جديد لتجديد نفسها وتنشيط قواها، أما روحنا فقد أصابه المرض، وركبته العلل، وأوهنته الهبوطات والسفليات والعمى عن "الماورائيات"، ولقد أفرغتنا الأيام من جوهر وجودنا الاستثنائي بين الوجود... إننا ندرك اليوم كم كان شقاؤنا مريعاً عندما عشنا وكأننا بلا ربّ يربينا وبلا إله يراعينا، فغدت حياتنا تعباً مُمِلاً ومتاهات محيرة.

إن خمود الاستعلاء الإنساني في الإنسان المؤمن، وانسحاق روحه تحت أثقال المشاغل الدنيوية، وتشتت ذاته بين مختلف الاتجاهات، هو واحد من أسباب الضعف الروحي والفكري الذي نعاني منه جميعاً، حتى غدا التعبير عن ذواتنا فنياً فيه من الضحالة والسطحية ما جعلنا نبدو أمام الآخرين وكأنّنا عراة من أية أعماق فكرية أو روحية، وغدونا أشدّ ما نكون افتقاراً إلى دروس في الروحانية العالية، والفكر الأعماقي الذي يتحفنا به بين آونة وأخرى الأستاذ "فتح الله كولن" في كتبه ومقالاته وأحاديثه.

لقد بلغ بنا الهزال الروحي والفكري إلى الحد الذي جعل الآخرين ينظرون إلينا وكأننا قوارير عتيقة سرعان ما تتفتت في الأيدي عند أخف الضغوط.

فأعمال "كولن" الفكرية إنما هي مناخات عقلية ووجدانية تساعدنا على أن نتنفس حتى أعماق رئاتنا صفاء الأفكار ونقاءها وعظمتها، فنتحول بهذا الفكر إلى كيانات متماسكة من الإيمان والمعرفة صعبة الاختراق والتفتت.

إن مما يجلب الانتباه في هذا الفكر الملتهب عند "كولن"، أنّ أفكاره إنما هي شرح وتفسير لأعماله، وأعماله إنما هي أفكار مطبقة أو هي في سبيلها إلى التطبيق.

ومما يثير الانتباه في هذا الفكر كذلك قدرته الفذّة على مغالبة اليأس وابتعاث الرجاء من مكامنه حيث يضيع كل رجاء... إنه فكر تجددي ولكنه غير استجدائي، اكتفائي غير افتقاري، تراثي وحداثي في الوقت نفسه، ماضوي ومستقبلي، محلي وعالمي، كوني السعة، إنساني النظر، عولمي الامتداد، يعتمد الحوار، ويتقبل الآخر، ويدعو إلى السلام. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.

الدّليل

جمال الحوشي *

قرأت له.. فوجدت أنّ ما قيل عنه قليل.. ونظرتُ في سيرته فرأيت آثار الصّدق تتفجّر في جوانحه، وهمّ الدّعوة يذكي لسانه ويؤجّج قلبه. كأنه ثكلى.. غودر عنها جميع ولدها، أو كأنّه نذير جيش يصيح بأعلى صوته، ويدعو بملء فيه. هذا هو الدّليل الإنسان (محمد فتح الله كولن) كما وقفت على آثار جهوده العلمية ودعوته العملية.. جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خيراً.

أسرجتَ خيلك في داجٍ من الظُلَم ... وجُزت فوق وهاد الرّوحِ للقمم
يا حاملاً مشعَلَ الإصلاح في يده ... ودربُه بين وهج النّور والحِكَم
يمّمتَ وجهكَ شَطرَ البيت يا بطلاً ... لزمزمٍ وحراءِ الطّهرِ والحَرم
ما كنتَ تطمعُ في مالٍ ومفخرةٍ ... وعينُ قلبكَ بالأحزانِ لم تنم
أقمتَ فوق (تلال الرّوح) ملحمةً ... ما كان زادُكَ غيرَ (النّور) و(القلم)
رسمتَ معنى عزيزاً للتصوّف في ... نهج الشريعة والأحكامِ والحِكَم
ورُحت ترفع راياتِ الهُدى دَئباً ... بالدّين والعِلم، والآمالِ والألم
ماذا يضيركَ يا (فتحاً) أراد لهُ ... ربّ الخليقة أن يعلو على السّقَم؟
إن ذاب جسمُكَ من وجدٍ لأمّته ... فدفقُ روحكَ فوق الهامِ والدّيَم
أو نال منك حقيرٌ في مذمّته ... فأنت عن زُمر الأحياء في القِمم
يا سائراً.. لرسول الله غايتُه ... وداعياً.. لكتاب الله لم ينَمِ
إليك أهدي قصيدي في ترنّمه ... وصادق الحُبّ أجلى من نضيدِ فمي
ما قادني لقريظ الشّعر من رحم ... لأنّ شوقي لأهل الصّدق من رحمي
فاهنأ بيسركَ هذي الشّمسُ قد طلعت ... ودعوةٌ.. إن رعاها الله لن تُضَمِ

(*) مدير تحرير مجلة "مكة" / المملكة العربية السعودية.





الشيخ حسن حبنكة الميداني

تاريخ يشيع في يوم، ويوم يتحول إلى وثيقة خالدة

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي *

لا أعرف في حياتي يوماً سالت فيه شوارع دمشق وأزقتها وميادينها، بأمواج متلاطمة من الناس، كالذي حدث يوم الاثنين الواقع في ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٩٨، يوم شُيّع شيخنا العالم المربي الشيخ حسن حبنكة الميداني إلى مثواه الأخير.

في ذلك اليوم، توقفت حركة دمشق أو كادت، وهجر الناس أعمالهم، وترك معظم الطلاب دروسهم، ونسُوا مدارسهم وجامعاتهم، وسار الكل مشياً على الأقدام في خطى وئيدة وسط زحام شديد، من دار شيخنا الراحل -رحمه الله- في أواسط حي الميدان إلى مسجد بني أمية الكبير، ثم من مسجد بني أمية إلى مثواه الأخير بجوار مسجد الحسن في حي الميدان (مسافة لا تقل عن ٨ كيلو متر).

لم يكن ذلك اليوم العجيب زمناً مر وانقضى، ولكنه كان في الحقيقة سجلاً ثبت واستقر.

سجلٌ ارتسمت عليه صورة أمينة ودقيقة لمدى محبة أهل الشام لعالمها الجليل الذي ارتحل.. محبة صادقة نبعت من القلوب، ولم تُلصق إلصاقاً بالمظاهر والوجوه، فما قادهم إلى توديعه بالسير في ذلك الدرب الطويل شيء، غير تلك المحبة التي لم تكن ثمرة لأي رغبة مما قد تميل إليه النفس البشرية من أمور الدنيا وأسبابها، وإنما هي سر رباني ينطوي على أكبر

الآيات الدالة على ما لهذا الدين من سلطان على القلوب.

وبيـان ذلـك، أن الناس -أيّاً كانوا- مفطورون على الحنيفية السـمحة التي ابتعث الله بها جميع الرسل والأنبياء. فإذا توفر لهم سبيل تربوي سليم يقيهم غوائل النفس ومكر الشيطان، نمت هذه الفطرة كما تنمو الحبة في باطن الأرض، واستقرت لها جذور راسخة في القلب، ثم امتدت منها أغصان باسقة وثمار عظيمة إلى الفكر والنفس.

فمـا يبصـر هؤلاء النـاس عالِماً بدين الله، قـد أخلص لله في علمه وعملـه، إلا وأبصروا فيه مظهراً للفطرة التي أُشـربتها قلوبهم وهفت إليها نفوسـهم، فتعلقوا به من حيث هو تعبير مرئيٌّ ومحسـوس عن الحقيقة الإيمانية التي تعلقت بها أفئدتهم. ولعل هذا بعضٌ من معنى الحديث الـوارد بأن الله إذا أحب أحد عباده في الأرض، نادى ملك: "إن الله قد أحب فلاناً فأحبوه" (رواه البخاري) فيكتب له القبول في الأرض.

وعلى الرغم من أن شيخنا الراحل -عليه رحمة الله- كان كغيره من عامة الناس -حاشا الرسـل والأنبيـاء- غيـر معصوم، يجوز عليه السـهو والخطأ والعصيان، فقـد كان في حياته العامـة والخاصـة نموذجاً نادراً للمسـلم العالم بدين الله، العامـل بعلمه، الداعي إلى صراط ربـه، الجريء في إعـلان كلمة الحق وإبلاغها، المتخلق بأخلاق خاتـم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام.

وسـأتناول بالشـرح الوجيز بعضاً من هذه الصفات، مؤكداً للقارئ أنني لن أبالغ في بيان منقبة للشيخ ولا محمده، ولن أصفه إلا بما أعلمه فيه مشاهدة، أو بلاغاً من إخوة أجلاء لا يُرتاب بحديثهم. وقد عشـت عمري هذا، ولا أذكر أنني سـخّرت قلمي أو لساني لمدح من لا أثق بفضله، أو لقدْح من لا أستيقن مبرراً لقدحه.

علومه ومصادر استحصالها

كان عالمـاً غزيـر العلم، وأعني بغـزارة العلم كلاً من صفتي العمق والاتسـاع معاً. فما كان يتناول المسائل العلمية بسطحية عابرة، بل كان يقف عندها وقفة المنقب والمعقب، ويصلها بـكل مـا قـد يكون لها علاقة به من مسـائل أو علوم أخرى. وكان فـي الوقت ذاته ذا بصيرة نافذة بمختلف علوم الإسـلام؛ من عقيدة وفقه وأصول وتفسـير وحديث، وبمختلف مايعدّ آلة له أو سبيلاً إليه؛ كعلوم العربية بأنواعها، والمنطق والمناظرة والفلسفة.

فإن سـألتَ عن المصدر الذي تلقى منه الشـيخ -رحمه الله- هذه العلوم، قلتُ لك: إنه كان قد طوى في سـنوات شـبابه عهداً من طلب الدراسـة والعلم، قلّ أن يجد طلاب العلم اليوم مثله في الشدة والقسوة، فإن هم صادفوا ما يشبهه فقلّ من يتحمله ويصبر عليه، حتى يتجاوز حناظله المرة ويصل إلى ثماره الشهية.

لقـد كان مـن الشـيوخ الـذي تلقى عليهم شـيخنا -رحمه الله-: الشـيخ محمـود عطار، والشـيخ أمين السويد، والشـيخ بدر الدين، والشيخ عبد القادر الإسـكندراني، والشيخ عطا الكسم، والشيخ سعيد البدليسي.

وكان من دأبه أن يحمل أوقار كتبه متنقلاً من واحد إلى آخر، يجشِّم نفسَه قطْع المسافات الطويلة التي تَفصِل ما بين هؤلاء الشيوخ، سيراً على قدميه في أكثر الأحيان.

ولـم يكـن إقبالـه على العلـم بدافع من الهوايـة الذاتية، كمـا هو دأب كثير مـن العلماء





والباحثين.. فما عرف عنه أنه عكف على دراسة علم من العلوم لمجرد أن له هوى في دراسته، بل كان همه أن يجعل من العلم الذي يقبل عليه -معلماً أو متعلماً- أداة في طريق الدعوة إلى الإسلام. وقد انعكس هذا الاهتمام على طريقة حياته الخاصة والعامة، وعلى الأسلوب الذي كان يعتمد عليه في التدريس والتعليم.

أما انعكاس ذلك في حياته الخاصة والعامة، فقد ظهر جلياً في ميله إلى التبتل والإكثار من العبادة منذ أوائل عهده بالدراسة وطلب العلم، دون أن يسبب له هذا الميل إعراضاً عن الدراسة أو فتوراً في عزيمته نحوها، ودون أن تقصيه الدراسة أو الرغبة في العلم عن عباداته وأوراده وأذكاره. ولقد علمت مما أخبرنا به الشيخ عن نفسه -رحمه الله- أنه كان يمضي معظم شهر رمضان معتكفاً في المسجد، وكان يجعل من اشتغاله بالعلم -مطالعة وتدريساً- أهم عبادة يملأ بها جلّ أوقات اعتكافه.

وإنها لطبيعة نادرة في طلاب العلم أن يجتمع لدى أحدهم حب العلم مع الإقبال على العبادة والاستئناس بالأذكار والأوراد، بل إن معظم من رأيناهم من طلاب العلم يتفرقون بين هذين السلوكين: فإما عكوف على العلم واستغراق فيه مع تقصير في الطاعات والعبادات، وإما اتجاه إلى العبادات والأذكار مع زهد في الدراسة والعلم.

ولعل مما يتصل بهذه المزية في شيخنا -رحمه الله تعالى- أن علوماً مختلفة، بل متباعدة، كانت تتلاقى في حلقاته الدرسية، قلّ أن تجدها تتلاقى على نهج مطرد من الاحتفاء والتقدير عند كثير من العلماء والباحثين. فلقد كنا نقرأ عليه -مثلاً- كتاب الخبيصي في المنطق، ونقرأ عليه إلى جانبه الحكم العطائية في التصوف، وكنا نقرأ عليه شروح العقائد النسفية في علم الكلام، إلى جانب زهر الآداب في علم الأدب...

وإني لأذكر جيداً كيف كان يبصّرنا في كل مناسبة، بالجسور الواصلة بين هذه العلوم المختلفة، وينبهنا إلى الجامع المشترك الذي تتلاقى عليه هذه العلوم مهما بدت متخالفة متفرقة بعضها عن بعض؛ ثم يؤكد لنا أن هذا الجامع المشترك يمثل الطاقة التي لابد من الحصول عليها، ابتغاء النهوض بشكل سليم بأعباء الدعوة إلى دين الله ﷻ. فالمنطق والفلسفة والأدب والتصوف وعلوم اللغة.. إنْ كل ذلك إلا أدواتٌ ذات أهمية قصوى في مجال الدعوة الإسلامية، يعلم كيف يسخّرها لذلك على أحسن وجه، كلُّ من أخلص دينه لله وابتغى في كل شؤونه وجه الله ﷻ.

دعوته إلى الله وروحه الجهادية

ثم إنه ما عُرف عن الشيخ -رحمه الله- أنه فصل يوماً ما في حياته، جهادَ العلم والتعليم في صفوف الطلاب وبين كتب العلم، عن الجهاد بصدع كلمة الحق في المجتمع وعلى مسامع الحكام. ما أذكر، وما يذكر أحد من طلاب الشيخ وإخوانه، أنه اختار يوماً ما واحداً فقط من هذين الطريقين سواء في عهد دراسته للعلم طالبا متمكناً، أو في عهد نضوجه واشتغاله بالعلم أستاذاً ومرشداً.

أجل، ما أعرف أنه -رحمه الله تعالى- قد تخلى عن إحدى هاتين الوظيفتين في أي مرحلة من مراحل حياته، منذ أن كان طالب علم متبصراً يدرس العلم على أساتذته وشيوخه، إلى أن ودع طلابه وإخوانه أثناء بعض الدروس قبل ثلاثة أيام من وفاته...



إن الناس مفطورون على الحنيفية السمحة التي ابتعث الله بها جميع الرسل والأنبياء. فإذا توفر لهم سبيل تربوي سليم يقيهم غوائل النفس ومكر الشيطان، نمت هذه الفطرة كما تنمو الحبة في باطن الأرض...

فأما وظيفته الأولى، فتتلخص في إنشائه معهداً لطلاب العلوم الشرعية باسم معهد التوجيه الإسلامي، بدأت نواته بطلاب قد انقطعوا لدراسة العلم على يديه في مسجد "منجك" قرب داره في حي الميدان. (ويتكون من هؤلاء الطلاب وإخوان لهم، اليوم، واحدة من أهم جبهات العلم والدعوة الإسلامية في دمشق). وسرعان ما انبثق من هؤلاء الطلاب معهد نظامي شرعي ضم العشرات ثم المئات، وسرعان ما أسست لهذا المعهد جمعية ترعى الشؤون المالية لهذا المعهد، وكان معهداً داخلياً، يتوفر فيه للطلاب المسكن والطعام، بل حتى المهم من الثياب في مناسبات موسمية متكررة.

وأما وظيفته الثانية التي كان قد أخذ نفسه بها، فتتمثل في الآثار التاريخية التي سجّلها اشتراكه -رحمه الله تعالى- في الثورة ضد الاستعمار الفرنسي، ثم في إثارة الرأي العام وجماهير المسلمين ضد كثير من التدابير والقوانين التي سنها الاستعمار الفرنسي، مما يتنافى مع أحكام الشريعة الإسلامية أو مع مصالح الأمة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك الثورة التي اجتاحت البلاد آنذاك ضد قانون الطوائف التي حاولت فرنسا أن تفرضه على المسلمين.

كما تتمثل وظيفته الثانية هذه في الآثار التاريخية الهامة التي سجلتها محاضر "رابطة العلماء" في دمشق. وقد كان له دور كبير في إنشائها، كما كانت إليه أمانة سرها. وقد كانت لهذه الرابطة جولات عظيمة لا تنسى، وأيام باقيات لا يعفي عليها الدهر، ظهر فيها الدفاع عن دين الله والاستبسال لحفظ حرمات الله بشكل تقرّ له عين كل مؤمن، وتتفجر منه مرارة كل زنديق منافق.

فراسته وبراعته في معالجة الأمور

ثم إن الشيخ -رحمه الله- كان قد أوتي -إلى جانب انكبابه على العلم وشغفه بالدعوة إلى الله- فراسة ثاقبة وحكمة دقيقة، وبراعة نادرة في معالجة الأمور والمشكلات، وتقديراً قلّ أن يخطئ لعواقب الأمور ونتائج الأحداث؛ كل ذلك مع جرأة في الحق تستعلي على جميع المخاوف والأخطار.

ولقد شهد من مناورات أولي الأمر الذين تعاقبوا على سدّة الحكم خلال جيل من الزمن، ألواناً وأصنافاً، فما خدع منها بلون ولا غرّه منها ظاهر.

ولقد جاء من لوّح له فيما بعد بسلاح القهر وخطر القتل، فما طاش له من ذلك رأي ولا ذلت له قناة. وواصل جهره بالحق وتنديده بالمنكر وأهله، ملتزماً في ذلك خطه الذي لا عوج فيه: حكمة بالغة في التعبير والبيان، وجرأة نادرة في التحذير من الباطل والتنديد بالمبطلين.

ثم رأت دوائر الكفر والطغيان، ذات الهوية المادية الملحدة، أن بقاء الشيخ بفكره المتدبر الثاقب ولسانه القوي الصارم يحول دون سعيها الناجح إلى خنق الإسلام وأهله، ويصدّها عما ألزمت نفسها به من القضاء على فكرة الإيمان بالله، وما عزمت عليه من "تحنيط الإله والزج به في المتاحف" فأوعزت إلى أجرائها أن ينفذوا التهديد ويحققوا الوعيد، وأن يخنقوا صيحة الإسلام في دمشق بقتل زعيم الدعوة الإسلامية فيها، لسان أهل العلم جميعاً، ورأسهم المفكر والمدبر: الشيخ حسن حبنكة الميداني.

فما كان من الأُجَراء إلا أن خفّوا إلى تنفيذ الأوامر، وزجّوا به في الغياهب تمهيداً لإعدامه والقضاء عليه.. ولكن الرب الذي كان المبطلون يدبرون سبيل "تحنيطه" فيما زعموا، كان يدبّر لهم سبيل النهاية والانمحاق، فلقد صدق فيهم قوله ﷻ: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾(الأنبياء:٧٠). لقد انتهوا من بطشتهم وسلطانهم إلى شَذَرَ مَذَرَ، وإلى ذلٍّ يتمنى الإنسان معه نعيم الموت.. من حيث عاد الشيخ إلى وظيفته التي أقامه الله فيها معلّماً وداعياً ومرشداً. وقد تضاعف له الحب والتقدير في العالم الإسلامي أجمع، وازدادت قلوب المسلمين توجهاً إليه وتعلقاً به.

شموخ فريد وتواضع عجيب

أما في نطاق الأخلاق الشخصية، فإني أرى أن أهم مزية أوتيها فقيد العالم الإسلامي، أنه كان يتمتع بكل من صفتي الشموخ والتواضع معاً، بالغاً في كل منها الذروة التي تتصورها، وكان الأهم من هذا أنه كان يضع كلاً من هاتين الصفتين من حياته في الموضع المناسب.



فإن اقتضى الموقف اعتزازاً وشموخاً، لم يستطع أن يغلب شموخه من الجبابرة أحد، وإن اقتضى الموقف تواضعاً وليناً، لم يتدان إلى لينه وتواضعه أحد.

ومكان الأهمية من هذه المزية الكبرى، أن بين كل من العزة المحمودة والكبرياء المذمومة، وبين التواضع المطلوب والهوان المكروه، فرقاً دقيقاً جداً، كثيراً ما تضيع معالمه على الناس، فتتداخل هذه الحقائق المختلفة في بعضها أمام تصوراتهم، فيُذَم منها ما هو خليق بالمدح والثناء، ويُمدَح منها ما هو جدير بالتحذير والتنفير منه.

وما رأيت إنساناً في عصرنا هذا، ملك الميزان الدقيق في التفريق بين هذه المواقف الأربعة، ثم ضبط سلوكه بمقتضات هذا الميزان مثل شيخنا الراحل عليه رحمة الله.

وربما عرف بعض الناس الشيخ معرفة سطحية لا مخالطة فيها، فتوهم أنه كان ذا أنفة وكبرياء على الناس، ولكن الحقيقة أن هؤلاء الناس لم يتح لهم أن يروا من حياة الشيخ إلا جانباً واحداً ألزمه بما قد توهموه تعالياً وكبرياء.. ولو أنهم عرفوا منه الجانب الآخر أيضاً، لتكاملت لهم الرؤية ولوجدوا في كل من الجانبين ما يتكفل بتفسير الجانب الثاني.

إن الذي يقف مع أهل بيته في مرافق الخدمة من داره، ثم ينخرط معهم في القيام بكل ما تتصوره من الخدمات المنزلية، لأبعد ما يكون عن طبيعة التكبر والتعالي. وقد كان هذا العمل من شأنه، يعرف ذلك منه كل من خالطه في حياته.

وإن الذي يسهر الليل مع أهل بيته، عاكفاً معها على تفصيل أردية الطلاب وخياطتها، ثم يحملها إليهم مع الصباح ليرى أقيستها عليهم، فيأخذ من طول هذا ويزيد من عرض ذاك، يمارس ذلك كله بنفسه لأبعد ما يكون عن معنى الغطرسة والتعالي.

نعم، هكذا عرفت شيخنا رحمه الله. كان يمضي ليالي بطولها في شهر رمضان مع زوجته، لا شغل لهما إلا تحضير أردية (جبب) الطلاب، كي تكون جاهزة لهم مع إشراقة العيد. بيده المقص وبيدها المخيط. فإن رأى أن التعب قد نال منها، ذكّرها -رحمه الله- بأن أعظم عبادة يتقرب بها عبد إلى الله ﷻ إنما هو خدمة طلاب العلم ورعايتهم لوجه الله ﷻ.

وقد أخبرني صديقنا ونجل شيخنا -رحمه الله- فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حبنكة[1] أن الشيخ -رحمه الله- قد بلغ من اهتمامه وشفقته بطلابه أنه كان ينسى في جنبهم كثيراً من شؤون أولاده. فقالت له زوجه يوماً: هلاّ أوليت أولادك أيضاً من العناية والاهتمام مثل الذي توليه لسائر الطلاب. فقال لها: عليّ أن أهتم كثيراً بشؤون طلاب العلم، وسيتولى الله ﷻ مقابل ذلك، شؤون أولادي...

حقاً، لقد أوتي الشيخ -رحمه الله- مجموعة من المزايا والصفات، قلّ أن تجتمع في تكامل وتناسق عند شخص واحد. والذين لم يعلموا الشيخ إلا في سنواته الأخيرة، لم يعلموه على حقيقته ولم يكتشفوا سائر مزاياه وأخلاقه.

لقد كانت حياته تاريخاً وعبرة، ثم جاء يوم وفاته فكان هو الآخر تاريخاً وعبرة!..

كانت حياته عبرة تنطق لكل ذي فكر ولب، بأن الجرأة الحكيمة في التعبير عن الحق، لا تنسخ حياة ولا تنقص من العمر ذرة، وأن المداهنة أو المصانعة على حساب الحق، لا ترفع لصاحبهما قدراً ولا تنسج له جاهاً، بل تهبط به إلى الدرك في أعين الذين يداهنهم من الفسقة والمنحرفين قبل المستقيمين والصالحين. وأن أشرف ما يرتديه العالِم في قومه من سيما المهابة والوقار أن يسمو بعلمه عن مصانعة المارقين ومماراة السفهاء، ويسخره مخلصاً لبلوغ مرضاة الله ﷻ.

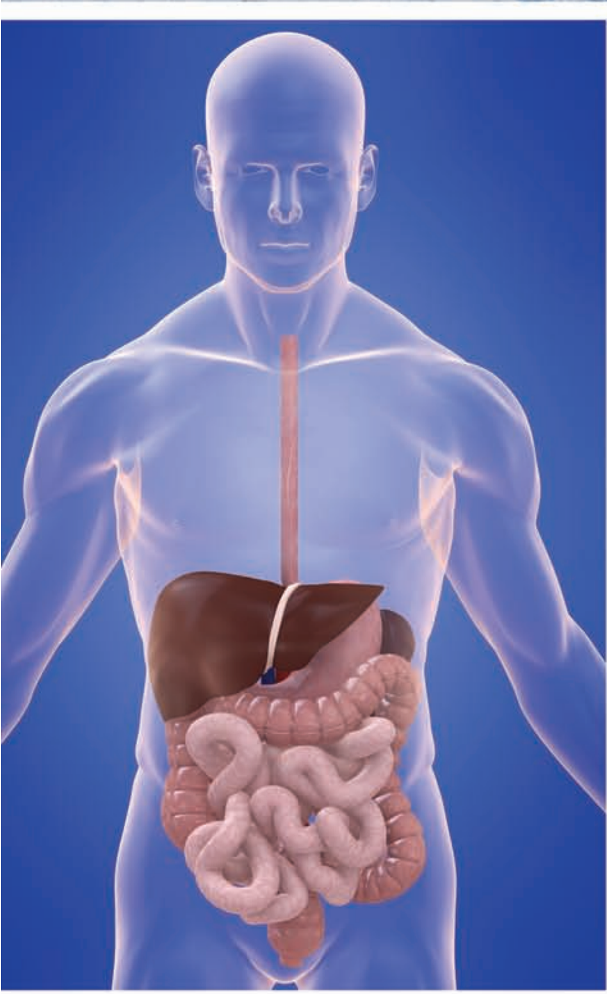
وكان يوم وفاته أيضاً عبرة للناظرين المتبصرين، أكد لهم أن المسلمين لا يزالون مسلمين صادقين، وفي مقدمتهم جيلهم الصاعد الذي تفيض بهم المدارس والجامعات.. بيعتهم للحق وأهله وحبهم للعلم ورجاله وهواهم مع كل داع إلى دين الله صادق في دعوته مخلص لله في عمله وجهاده. ■

(*) جامعة دمشق، كلية الشريعة / سوريا.

الهوامش

[1] هو أكبر أنجال الشيخ -رحمه الله- قد ورث عنه الكثير من علمه، وانطبع بجميل أخلاقه وسموّ نفسه. وهو إلى جانب علمه، أديب شاعر مرهف الحس، سخر أدبه وشعره في السبيل إلى مرضاة ربه. كان أستاذاً في كلية الشريعة من جامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة، وشغل قبلها منصب مدير التعليم الشرعي بوزارة الأوقاف في دمشق. أخرج سلسلة من المؤلفات القيمة، جلّها يعالج الكشف عن خطط الغزو الفكري في العالم الإسلامي. آخرها كتاب "صراع مع الملاحدة حتى العظم". توفي -رحمه الله- يوم الأربعاء: ٢٠٠٤/٨/١١.





أمعاء عبد الله تتكلم

أ.د. عرفان يلماز *

عزيزي عبد الله.. من أجل أن تستوعبنا، عليك أولاً أن تعي هذا المبدأ الذي يتعلق بالكائنات الحية كلها. فلابد لجميع المخلوقات أن تعيش بتناغم وانسجام وتستخدم طاقاتها لتقوم بدورها الذي كُلّفت به. وإذا خلا نظام الأحياء من الطاقة فيستحيل حينئذ أن يكون النشاط الأيضي والحيوي موجوداً في العالم أجمع. وهذه الحالة تشبه السيارة التي تخلو من البنزين، حيث لا تعمل بدون بنزين ولو كانت جميع قطعها سليمة لا خلل فيها.

لا شك أن جميع الكائنات الحية ومن ضمنها الإنسان، تحتاج إلى وقود أو طاقة تغذي بها أجزاءها وتجعلها تعمل بحيوية، وقد تُنتَج هذه الطاقة المغذّية من أجلنا -نحن المخلوقات- من قبَل النبات والحيوان.

ولكن هذه الطاقة التي تحتوي على مواد غذائية أساسية وفيتامينات ضرورية، لا يُنتفَع بها عن طريق الفم بتناول الطعام فحسب، بل يجب أن تتخطى كل مراحل الهضم حتى نستخرج -نحن الأمعاء- من الطعام الموادَ الغذائية ونطرح الأخرى غير المفيدة، كما نقوم بتخزين بقايا الطعام لوقتٍ تمريرها إلى خارج الجسم. وهذه تشبه عملية النفط تماماً، حيث لا يعمل النفط دون تكريره ودون تحويله إلى بنزين. هذا وقد كلِّفنا بأن نقوم بتكرير المكونات الأساسية من بين المواد التي يحتاجها جسمك؛ كالماء، والأملاح المعدنية، والفيتامينات، والدهون، والبروتينات، والكربوهيدرات، وذلك لنتمكّن من القيام بخدمتك على أكمل وجه... ونريدك أن تعلم يا عبد الله، أننا لو قصّرنا في عملنا هذا، لما استطاعتْ أعضاؤك الأخرى



إصلاح نفسها أبداً ولما استطعتَ أنت حتى تحريك إصبعك! وبعبارة أخرى سيؤدي ذلك إلى نقص الطاقة والمكونات الأساسية لديك وإلى إفلاس جسمك ومن ثم إلى الموت. نعتقد أنك أدركتَ الآن قدرنا وشأننا؟..

فنبدو لك في الوهلة الأولى أننا عبارة عن أنابيب فارغة ومرنة وزلقة، هذا ما يجعلك تحكم علينا بمثل هذه البساطة. صحيحٌ أننا لا نملك التفاصيل الكثيرة كالقلب والرئة والكبد والكلى، ولكن خلقنا ربنا لأن يظهر قدرته وعظمته فينا، وأن يبهر البشر كلهم بإبداعه الفني المعجز، وأن يبيّن لهم أنه قادر على أن يخلق من اللاشيء كل شيء ومن البسيط المعقّدَ بلمح بصر. ولعل الأنابيب التي تستخدمونها -أنتم البشر- إبان سقي حدائقكم وبساتينكم تتعطل في وقت قصير أو تقطَع أو تنثقب، ولكن جدراننا المرنة والمتألفة من أربع أنسجة رئيسية لا تتعطّل ولا تتلف طوال حياتك ما لم تُصَب بمرض ما. أما الأغشية المخاطية لجدراننا هذه فتتكوّن من النسيج الضام، والنسيج العضلي، والنسيج العصبي، والنسيج الطلائي الذي يقوم بعملية الامتصاص.

النظام الكيميائي العجيب

عزيزي عبد الله.. ما رأيك الآن أن نستهل جولتنا في شرح كيفية الهضم التي نقوم بها؟.. ولكن قبل ذلك نذكّرك أننا لسنا قادرين على أن نقوم بكل هذه الأعمال من تلقاء أنفسنا، بل كلها تلبية لأوامر ربنا وخالقنا الذي كلّفنا بهذه المهمة وسخرنا لخدمتك أنتَ...

وإنك لَتصاب بالذهول والدهش الشديد حالَ معرفتك بالنظام الكيميائي المعقد في جدراننا التي تبدو كأنبوب بسيط جداً. ولابد أن تدرك هنا أن كل خلية من خلايانا بمثابة مصنع تقوم بإنتاج الأنزيمات الخاصة التي تنظِّم عملية الإفراز لفضائنا الداخلي، وتقوم بتحطيم كل المواد التي تصل إلينا. أما بعض هذه المصانع فتقوم بإنتاج الأنزيمات التي تساعد على تكسير البروتينات إلى عديدات الببتيد، وبعضها الآخر تنتج الأنزيمات التي تساعد على تكسير الببتيدات إلى أحماض أمينية، وبعضها تنتج الأنزيمات التي تقوم بتكسير الكربوهيدرات إلى جلوكوز، وبعضها الآخر تنتج الأنزيمات التي تساعد على تكسير الدهون وتحويلها إلى الأحماض الدهنية والغليسرين.

ثم إن هذه الخلايا تمتاز كل واحدة منها بخاصية تختلف عن الأخرى؛ فمثلاً الأنزيمات التي تقوم بتكسير سكر الفاكهة تختلف عن أنزيمات سكّر الحليب وعن أنزيمات النشاء. ومن أجل أن تقوم كل هذه الأنزيمات بمهامها المطلوبة يجب أن يتمتع داخلنا بدرجة الحموضة المطلوبة، لأن أنزيماتنا تعمل بحساسية كبيرة. فيمكن -على سبيل المثال- لأنزيمات المحطة الثانية للأغذية -وهي معدتُك- أن تعمل في بيئة حموضية بكل سهولة، بينما أنزيماتنا نحن لا تعمل إلا في بيئة يتم فيها الإفراج عن السوائل الأساسية حتى تُجعل الأحماض القوية محايدة.

الأمعاء وأجزاؤها

عزيزي عبد الله.. إن طولنا يبلغ ٨,٥ م، ونمتد من الفتحة البوابية للمعدة حتى الفتحة الشرجية كأنبوب مرن الجدارن متغير الحجم، كما أننا نقسم إلى أمعاء دقيقة وأمعاء غليظة؛ إذ يبلغ طول أمعائنا الدقيقة ٧ أمتار، وطول أمعائنا الغليظة ١,٥ م. هذا وقد تتفرع أمعاؤنا الدقيقة إلى ثلاثة أجزاء؛ أولها قناة "الاثني عشر" التي يتراوح طولها من ٢٥ إلى ٣٠ سم. وهي ملتوية على شكل هلال تبدأ من الفتحة البوابية للمعدة وتنتهي بالصائم أو الصمام الأعور، كما تصب في هذه القناة أنزيمات هاضمة يفرزها كل من الكبد والبنكرياس، حيث يعمل كل أنزيم منها على هضم نوع من المواد الغذائية. وأما الجزء الذي يلي "الاثني عشر" من أمعائنا الدقيقة فيسمى بـ"الصائم"، كما يسمى الجزء الأخير من هذه الأمعاء بـ"اللفائفي" الذي يتصل بأمعائنا الغليظة في منطقة الأعور.

هذا وقد يصعب عليك التمييز بين هذين الجزأين "الصائم" و"اللفائفي"؛ أما الصائم فيتميز باللون الضارب إلى الاحمرار بسبب كثافة دورته الدموية، وقد تكون هذه المنطقة أسرع وأكثر حركة وقوة في التقلص والانكماش، بينما قسم اللفائفي ضيّق ورقيق الجدران، كما أن الدورة الدموية فيه بطيئةٌ ومحدودةُ الحركة، إلا أن نسبة الدهون في أمعائنا المساريقية مرتفعة جداً. وإن لم تكن تسمع بـ"المساريقا" فيمكن أن نعرّفها لك بأنها هي "منديل البطن" أو هي الأنسجة التي تربط الأحشاء الداخلية ببعضها البعض داخل التجويف البطني، والتي تنتشر فيها أوعية دموية دقيقة. أما الأوعية الدموية الرئيسية في المساريقا فتتفرع إلى أجزاء ثم تمر هذه الأوعية من جدراننا وتتوزع داخل الزُغابات كشبكة أوعية شعيرية.



وأما الزُّغابة فهي نتوء مجهري في بطانتنا، مخملية الشكل تشبه أصابع اليد، كما يتم من خلالها امتصاص المغذيات، وهي من هذا الجانب أكثر الأجزاء حيوية، وعن طريق هذه النتؤات الصغيرة تتوسع مساحتنا الداخلية. وقد وضع خالقنا القادرُ العليمُ في هذه الزغابات شبكة شعيرية وأنابيب ليمفاوية، وبالإضافة إلى خلايا الغدد التي تفرز أنزيمات لكسر الأغذية، فهناك إفراز غدد تحمينا من حمض المعدة المحطّمة، كما توجد هناك خلايا تفرز مادة مخاطية واقية ملساء تمرّر الأغذية بسهولة. وعلاوة إلى خلايا زغاباتنا التي تفرز الأنزيمات الهضمية، فهناك خلايا يتم عن طريقها امتصاص المغذيات وتمريرها إلى الدم.

المسار الدموي والمسار الليمفاوي

عزيزي عبد الله... لا نكاد نفهم حتى هذه اللحظة، كيف يرضى البعض بإسناد كل هذه الأمور الخارقة والمعجزة إلى الطبيعة المخلوقة؟! فكل هذه العجائب التي حدثناك عنها لا تدل إلا على قدرةِ وعظمةِ الخالق في هذا الكون العظيم، وتدل في الوقت نفسه على علمه اللانهائي الذي يعجز العقل عن الإحاطة به واستيعابه كلياً... فأيُّ نظام هذا، يعرفُ ميزات المواد الغذائية ومحتوياتها ثم يوزعها حسب حاجات الأعضاء عن طريق أنزيمات تنقي الضار من النافع، وتستخدم ما تفرزه بطريقة فريدة من دون إسراف أو تبذير! بالله عليك يا عبد الله، أيعقل أن توجد كل هذه الأمور من تلقاء نفسها؟! ثم إننا لو قمنا بشرحِ آلية الامتصاص فلعلك تسند الألوهية إلى تلك الخلايا الصغيرة التي تقوم بتنفيذ هذه الأعمال. ولكن خالقنا الذي أبدعنا والذي أوجد فينا نظاماً فريداً جعل كل جُزيئة فيه تخدم الأخرى، ووضع فيه ملايين الزغابات التي تحتوي كل واحدة منها على آليّتَي نقلٍ في المسار الدموي والليمفاوي، كما جعل امتصاص السكر والأحماض الأمينية والماء والأملاح يتم بشكل مباشر عن طريق الدم، وامتصاص الدهون يتم بشكل غير مباشر عن طريق الليمفاوية وتختلط بالدم. وبعد هذا الامتصاص تصبح كل هذه الأغذية ملكاً لجسمك، ومن ثم تُنقل عبر الدم إلى كل الخلايا حيث تأخذ كل منها نصيبها من هذه المغذيات.

مصير فضلات الغذاء

إذن، ما مصير فضلات الغذاء؟ فليس من الضروري أن يكون كل ما تأكله مفيداً ومغذياً، وإنما هناك مواد سامة تؤدي إلى أمراض خطيرة مزمنة، لذا يجب أن تُطرح هذه الفضلات التي لا يحتاجها الجسم إلى الخارج بسرعة، وذلك بعد قيام أمعائنا الغليظة بامتصاص الماء منها.

وتتفرع أمعاؤنا الغليظة فيما بينها إلى ثلاثة أجزاء: ويسمى أول هذه الأجزاء بـ"الأعور" (Caecum) وهو كيس قصير وسميك تتصل به زائدة رفيعة تسمى بـ"الزائدة الدودية" (Appendix)؛ إذ عندما تصاب هذه الزائدة بالالتهاب لا يتم إزالته إلا بالعملية الجراحية. وقد كان الباحثون الأطباء يجهلون مهام "الزائدة الدودية" هذه، بينما أثبتت الدراسات الطبية مؤخراً ضرورتها وفائدتها في الكثير من الأمور؛ منها إنتاج الأجسام المضادة -كجهاز ليمفاوي- لمكافحة الجراثيم التي تدخل جوفنا بوسيلة من الوسائل، ومن أجل هذا الغرض جهّز ربنا هذا الجهاز بشبكة أوعية دموية كبيرة... وإذا اعتبرنا هذا القسم خالياً من الفائدة، فلماذا إذن تم إعداد هذه الشبكة الدموية؟!

أوَليس كل هذه الأجهزة التي تقوم بمهمّتها على أحسن وجه ودون أي نقصان، تدل على قدرة ربنا ﷻ وحكمته، وعلى أنه لم يخلق شيئاً عبثاً.

الأمعاء الغليظة والجهاز العضمي

أما الجزء الثاني من أمعائنا الغليظة فيطلق عليه اسم "القولون" (Colon) وهو يمتد في التجويف البطني، ويتألف من ثلاثة أجزاء هي؛ القولون الصاعد، والقولون المستعرض، والقولون النازل، وينتهي بالجزء الذي يسمى "القولون الحوضي" (Sigmoid Colon). وأما في الجزء الأخير من أمعائنا الغليظة فيوجد "المستقيم" الذي تتجمع فيه الفضلات لطرحها خارج الجسم، وقد تفرز مادة مخاطية لتسهيل الطرح هذا. وقد وُضِع العديد من البكتيريات المفيدة في أمعائنا الغليظة لتلبية حاجاتك، حيث تفرز هذه البكتريات الفيتامينات؛ "ب ١٢" و"ب" و"ك".

ما رأيكَ في هذا الإعداد الإلهي العجيب يا عبد الله!.. يتم إفراز الفيتامينات الحيوية في أخبَث بقعة من جسمك!؟ إذ لولا الفيتامين "ك" -مثلاً- لَما تخثّر دمك، ولَمُتَّ حالَ إصابة أوعيتك الدموية بالنزيف!..

عزيزي عبد الله... لعلك تتسائل بعد كل هذه التفاصيل، عن طبيعة عملنا في تمرير هذه المغذيات وطرحها إلى خارج الجسم؟ نقول لك بصراحة.. إن جانب دماغكَ الذي يقوم



بتسيير الأعمال الإرادية، يجهل كل هذه الأمور التي نقوم بها، لأنه إن علم ذلك لانشغل بنا دائماً ولأهمل مهماته الأخرى. ولعل الجهاز الهضمي لدينا يبدو ذا تركيبة بسيطة، إلا أن وظيفته وتفاعله مع الأجهزة الأخرى معقّدة جداً، لكنها ضرورية لإدامة الحياة...

وقد تعمل جدران أعضائنا المجوفة التي تتألف من العضلات المضغوطة على شكل طبقات، عن طريق التمعج أو التحوي أو ما يعرَف بـ"الحركة الدودية" للأمعاء؛ وهي مجموعة من التقلصات اللاإرادية التي تحدث على شكل موجات متعاقبة تقوم بدفع محتويات الجهاز الهضمي إلى الأمام حتى تنتهي إلى القولون ثم إلى خارج الجسم، كما يقع هذا النوع من الحركات مرتين أو ثلاث مرات في اليوم الواحد. ولكن إذا أهملتَ -يا عبد الله- هذه العملية أو أمسكتَ الفضلات داخل قولوناتنا وما سمحتَ لها بالخروج في الوقت اللازم، فستتعرض عندها لحالات حرجة وخطيرة ومن ضمنها السرطان.

الأعراض الخطيرة

هذا وقد اعتبرت المشكلات والأعراض المتعلقة بالجهاز الهضمي، واحدة من أكثر الأسباب شيوعاً؛ كأعراض "متلازمة القولون العصبي"؛ إذ تعد هذه واحدة من الاضطرابات الشائعة التي تصيب القولون مسببةً تقلصات وتشنجات مؤلمة، فضلاً عن الغازات والانتفاخات التي تؤدي إلى تغيرات في طبيعة القولون، وكأعراضِ "التهابات الكبد الوبائية" التي تنتج عن الإصابة بفيروسات متعددة أو عن التهابات كبدية، وقد يوجد هناك الملايين من البشر مصاب بالتهاب الكبد الوبائي الذي غالباً ما يؤدي إلى إصابة التهاب كبدي مزمن وتليف أو سرطان في الكبد.

عزيزي عبد الله... اعلم أننا لم نبيّن لك إلا عُشْر ما نعلم، ولو أننا هممنا بشرح كل هذه الحكم وكل تجليات أسماء الله الحسنى علينا، لَما عاد عقلك يستوعبُ ولَما كفى علمنا على ذلك. فننصحك يا عبد الله في نهاية كل ما شرحناه، أن تقي نفسك من الاضطرابات النفسية التي تؤدي إلى حالات صعبة وحرجة في جسمك وحياتك... ونشكرك على حسن استماعك وعلى أتاحتك لنا فرصة التحدث عن مُبدِعنا وخالقنا ﷻ. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.

حراء
مجلة علمية ثقافية فصلية
www.hiramagazine.com

الفيوض الرحمانية

بالظلم والمظلومين مادت الأرض،
والسماء اهتزّتْ،
وعليهم بكتْ...
أمّا الأكُفُّ الممدودة إلى الله تعالى،
فهي وحدها التي ستنهمر عليها الرحمات،
وتنصبّ عليها ألطاف الفيوضات...
* * *

إن رابط المحبة هو الذي يجعل المحبين قلبا خفّاقا واحدا، بنبضاته تحيا البيئة وتستقيم وتنتظم، ومثل هذا الأمر لا يتحقّق إلا بتضحية الغالي والنفيس.

* * *



إشراقات قرآنية في طريق الدعاة

أ.د. عبد الوهاب الديلمي *

إن أي دعوة إلى الإسلام لا تقوم في أسلوبها ووسائلها على اقتفاء منهج القرآن الكريم، فلن يُكتب لها النجاح، لأن الله سبحانه هو وحده العالم بأحوال النفوس البشرية وطبائعها وأمراضها ومفاتحها والتواءاتها ومنعطفاتها. كما أن النفوس تتفاوت من حيث قربها وبعدها من الحق واستحكام الشر فيها من عدمه، ولكل حال من هذه الأحوال أسلوبه ومنهجه وطريقة مخاطباته.

والقرآن الذي يخاطب أعداء الدعوة والمحاربين لها في كل ميدان وبكل وسيلة ممكنة، كان يستمر في التخاطب معهم بألوان الخطاب. وهذا يعني ضرورة حاجة الداعية إلى معرفة أحوال من يدعو، وحسن التخاطب معهم، واختيار الأسلوب والألفاظ التي تتناسب مع كل مقام.

والداعية الناجح هو الذي لا يؤلب الناس على نفسه، ولا يسير في طريق يؤدي إلى تكثير الأعداء عليه ما استطاع إلى



ذلـك سـبيلا، وأن يعرف أنه مهما كانت عـداوة الناس له فهو مسـؤول عن دعوتهم وترغيبهم في القرب من الحق والتزامه، ومعرفـة أن القلـوب بيـد الله سـبحانه يقلبها كيف يشـاء، وأنه عندما يريد سـبحانه للعبد الهدايـة إلى الحق فإن كلمة واحدة قـد تحـوّل من حياتـه وتجعله نصيـراً للحق محبـاً متفانياً في الذود عنه بعد أن كان بخلاف ذلك.

الداعية، طبيب رحيم بمن يدعوه

ولا ينبغـي للداعية أن يقف ممن يدعوه موقف المعادي الذي يسـعى إلى إنزال المكروه بخصمه.. فقد كان قلب رسـول الله ﷺ مليئاً بالرحمة، حتى صار يتسع للقريب والبعيد، والصديق والعـدو، والمسـلم والكافر... ولقد قال في حق من اشـتدت عداوتهم وإيذاؤهم له: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم" (رواه البخاري)، وقال لملك الجبال وقد أرسله الله سبحانه إليه يستأذنه في أن يطبق على أعدائه الأخشـبين بعد أذاهم الشـديد له في الطائف: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا" (وراه البخاري)، وقال: "اذهبوا فأنتم الطلقاء" (رواه البيهقي)، وقال: "رحم الله أخي موسـى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر" (رواه البخاري)، وقال الله تعالى في شـأنه: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيـظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّـوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، فكل ذلك يدل على أن الرسول المصطفى ﷺ "ما كان يغضب لنفسه قط".

وقد استمر الرسول ﷺ يدعو إلى ربه أصناف الناس، وكان فيهـم الوثنـي والكتـاب والمنافـق والتابع والمتبـوع والرئيس والمـرؤوس... وكان يسـير فـي خطـى دعوته بتوجيـه رباني، يؤيده الوحي ويسـدد خطاه ويبصره بأساليب الدعوة. واستمر علـى هذه الحال ثلاثاً وعشـرين عاماً، حتى نزل عليه قول الله تعالـى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْـرُ اللهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْـتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِـي دِيـنِ اللهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْـدِ رَبِّكَ وَاسْـتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾(النصر:١-٣). وفـي هذه الآيات بيان لنجاح دعوته واتجاه النـاس إلى الإسـلام، وإكـرام الله سـبحانه له بفتـح مكة التي كان أهلهـا قطب الرحى فـي التصدي للدعوة والتأليب عليها، والتشـكيك فيها وفي حاملها، ونشـر الشـبهات حولها، وصد النـاس عنها، فأقر الله ﷻ عين نبيه ﷺ وشـرح صدره بأن مكنه مـن فتـح مكة، حتى صارت دار إسـلام، وصـار أهلها أنصاراً لدين الله ﷻ وهم أصحاب القيادة والسيادة في الجزيرة العربية.

وهـذا كلـه يحمل الدعاة على التأمل في سـير الدعوة إبّان نشـأتها وتلمس طريقها، انطلاقاً من قول الله ﷻ لرسـوله عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَـنِ اتَّبَعَنِي وَسُـبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(يوسف:١٠٨). فليبحـث الدعـاة عـن البصيـرة التـي سـار عليها الرسـول ﷺ ليكلـل الله أعمالهـم في دعوتهم بالنجاح، وليدرسـوا دراسـة واعية أسـاليب الدعوة في حياة الرسول ﷺ التي كانت ترجمة للتوجيهـات الربانيـة، ولا يحيدوا عنها إلا بقـدر ما تدعو إليه الحاجـة، وتمليـه الضرورة في أحـوال الناس المسـتجدة من ابتـكار الوسـائل والأسـاليب النافعة، غير أن هنـاك ثوابت في منهج الدعوة لا ينبغي تجاوزها، بل الاستمساك بها هو علامة النجاح في الدعوة إلى الله تعالى.

ومـا نراه اليوم من أسـلوب تنتهجه بعض وسـائل الإعلام الإسـلامية في خطابها مع الآخرين الذين يقفون من أصحابها موقف العداء والخصومة، ما هو إلا واحد من أساليب الدعوة التـي ينبغـي أن تتجنبها فـي خطابها. فهي فـي الغالب تكتفي بتتبع أخطاء الآخر ونشـرها بهدف التشـهير والفضح، وتدافع عن الدعاة في رد الافتراءات التي تقال عنهم، وتقف عند هذا الحـد الـذي من شـأنه أن يحـدث عند الآخر رد فعـل للدفاع عن نفسـه، والمعاملة بالمثل أيضاً حتى لا يتجاوز الأمر لدى الجانبيـن حـد المنابزة والتراشـق بالألفاظ، وكيـل الاتهامات ورصـد الأخطـاء وتلمس المعايـب التي لا يخلو منها بشـر. وهذا لا شـك أنه لا يجدي في مجال الدعوة شـيئاً ولا يقطف ثمـرة طيبـة، إذا لم يتم إحاطته بأمـور أخرى من أمور الدعوة، بـل يجلب الكثير مـن الخصوم ويوغر الصدور ويجعل الآخر يتمترس ضد خصمه.

الداعية، رجل جذب لا تنفير

لذلك ينبغي للدعاة أن يعرفوا أنه مهما كانت خصومة الآخرين ومهما وصل الكيد والمكر من جهتهم لخصومهم، فإن الداعية يظل داعية، لا يثأر لنفسه ولا يعالج الأمور بمجرد ردود الفعل الآنيـة، بل يصبر ويحتسـب مع اسـتخدام الأسـاليب التي قد تجعل من العدو صديقاً ومن المحارب للدعوة نصيراً.

وإذا كان منهج القرآن الذي أشرنا إليه ونصحنا بالاستنارة بـه، هـو المنهج الذي تعامل به الرسـول ﷺ مـع أعداء الدعوة وخصوم الإسلام، فمن باب أولى أن يتعامل به الدعاة اليوم مع سائر المسلمين الذين يخالفونهم في رأي أو سلوك أو أهداف



أو نحوها مما لا يُخرج عن الملة.

إن الأسلوب الذي تمارسه الصحف الإسلامية اليوم من حصر معايب الآخرين ونشرها، هو نوع من التشهير ومحاولة الحط من المدعو والتنفير منه، وهذا لا يعطي نتيجة طيبة. فالقرآن الكريم عندما استخدم هذا الأسلوب استخدم معه أساليب كثيرة، كلها كانت متعاضدة توصل إلى غاية محمودة وتقطف الثمار المطلوبة، إما في إقامة الحجة بالدليل والبرهان الناصع وإما في الوصول بالآخر للانشراح للحق والاهتداء إليه والاستمساك به، وهذه هي الغاية من الدعوة. والدعاة أطباء رحماء مشفقون بمن يدعونهم، يعرفون أن المدعو مصاب بأدواء وأن التعامل مع الأدواء يحتاج إلى حكمة ورفق ولين وكمال معرفة، وصبر على نفور المريض من الدواء الذي قد لا يقبله -لمرارته- في أول وهلة بيسر وسهولة.

الأسلوب القرآني في الدعوة إلى الله

١-الحوار مع الأعداء: وهذا الأسلوب ورد كثيراً في القرآن الكريم، بدءاً بالحوار مع إبليس الذي استكبر عن الامتثال لأمر الله ﷻ وحلت عليه لعنة الله، وكذا حوار الأنبياء مع أقوامهم، الذي كان من أبرز معالم الدعوة إلى الله تعالى، والذي ظهر من خلاله إقامة الحجة والبرهان على الخصوم، وتساقطت معه كل دعوى وشبهة عند المعاندين الجاحدين ضد الرسل وما أرسلوا به. والأمثلة في القرآن معلومة عند كل قارئ لكتاب الله تعالى، ولا يحتاج هذا الأمر إلى مزيد من الإيضاح ولا إلى ذكر نماذج له.

٢-ذكر حجج الأعداء وتفنيدها: من ذلك إنكارهم وحدانية المعبود سبحانه، واستنكارهم إبطال ما كان عليه آباؤهم من عبادة غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۞ وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾(ص:٤-٦)، وهذه الدعوى الباطلة جاء القرآن بتفنيدها بصور كثيرة منها:

• بيان عجز ما يعبدون من دون الله، وأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضراً ولا نفعاً، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۞ مَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحج:٧٣-٧٤).

• الاستدلال بما يعترفون به من وحدانية الله سبحانه في الخلق وتصريف أمور الكون، وفي الإحياء والإماتة والرزق وغيرها على صحة ما ينكرونه ويجادلون فيه من وحدانيته سبحانه في العبادة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۞ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾(يونس:٣١-٣٦).

• لجوؤهم إلى الله سبحانه وحده عند نزول الضر بهم وعدم التوجه إلى شيء من المعبودات الأخرى، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(الأنعام:٦٣-٦٤).



يحتاج الداعية إلى معرفة أحوال من يدعو، وحسن التخاطب معهم، واختيار الأسلوب والألفاظ التي تتناسب مع كل مقام. والداعية الناجح هو الذي لا يؤلب الناس على نفسه، ولا يسير في طريق يؤدي إلى تكثير الأعداء عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، وأن يعرف أنه مهما كانت عداوة الناس له فهو مسؤول عن دعوتهم وترغيبهم في القرب من الحق والتزامه...



• التشنيع عليهم في التقليد الأعمى الذي لا يقوم على دليل ولا برهان سوى مطلق المتابعة التي ألغوا معها عقولهم وصادروا تفكيرهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(البقرة:١٧٠)، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(المائدة:١٠٤) إلى غير ذلك من الطرق التي جاء فيها إبطال ما هم عليه من الشرك في عبادة غير الله تعالى.

٣-إبطال دعواهم أن القرآن من افتراءات الرسول ﷺ، وأنه غير منزل من عند الله سبحانه، قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾(الأنبياء:٥). وكان أعظم رد على هذا الافتراء أن تحداهم الله ﷻ بأن يأتوا بمثل القرآن أو بمثل عشر سور منه أو بمثل سورة، فلما عجزوا -وهم أهل الفصاحة والبلاغة- وكانوا شديدي الحرص على إبطال دعواه، وكان ذلك دليلاً دامغاً على أن القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد، كما جاءت آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿الر ۞ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(هود:١)، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾(المائدة:١٠٤) إلى غير ذلك من الطرق التي جاء فيها إبطال ما هم عليه من الشرك في عبادة غير الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:٥٢)، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾(الفرقان:٦)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾(النحل:١٠٢-١٠٣)، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فصلت:٤١-٤٢). كل هذه الآيات تدل على أن الرسول ﷺ لم يكن في هذا سوى مبلغ عن الله تعالى والآيات في وصف القرآن، وبيان عظمته والغاية التي من أجلها أنزل القرآن كثيرة جداً.

٤-إبطال إنكارهم رسالة محمد ﷺ: فالمشركون كانوا ينكرون أن يكون الرسول بشراً، فتارة يقولون: ﴿لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(الزخرف:٣١)، وتارة قالوا: ﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا﴾(الفرقان:٧)، وأحياناً يطلبون منه آيات خارقة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾(الإسراء:٩٠).

وقد جاء الرد عليهم في صور كثيرة منها: بيان سنة الله تعالى التي جرت في أن يبعث إلى الناس بشراً مثلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾(يوسف:١٠٩).

وهؤلاء الرسل البشر من شأنهم أن يأكلوا الطعام ويمشوا في الأسواق، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾(الفرقان:٢٠)، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(الأنبياء:٧-٨).

بيان أن إرسال ملك مكان البشر لا يكون إلا إذا كان المرسل إليهم ملائكة، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولاً﴾(الإسراء:٩٥).

عدم قدرة البشر تحمل رؤية الملك على حقيقته في الدنيا، لأنهم إذا رأوه على حقيقته فإما أن يُصعقوا عند رؤيته، وإما أن يجعله الله بشراً يأنسون به ويطيقون التعامل معه، وعند ذلك يحصل اللبس عندهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنْظَرُونَ ۞ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾(الأنعام:٨-٩)

٥-مجادلتهم في أمر البعث والنشور، وجحودهم العودة إلى الحياة مرة أخرى كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾(الجاثية:٢٤)، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَآبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾(الواقعة:٤٧-٤٨)، وأمثال هذه الآيات التي تتحدث عن جدالهم ومكابرتهم في أمر البعث والنشور كثيرة.

وقد جاء الرد على ذلك بصور كثيرة منها:

أ- تنزيه الله ﷻ عن العبث في الخلق وبيان أن عدم البعث والنشور لمجازاة المحسن والمسيء ما هو إلى ضرب من العبث، لأن الدنيا ليست دار جزاء ولابد من أن يأخذ كل



شخص جزاءه، وهذا لا يتم إلا بعد البعث والنشور. ففي قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون:١١٥)، وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ۞ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾(القيامة:٣٦-٤٠)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ۞ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾(ص:٢٧-٢٨)، وأمثال هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم...

ب- لفت النظر إلى ما يجريه الله سبحانه وتعالى من الإحياء بعد الموت في هذه الحياة، للإشارة إلى أن من قدر على ذلك فهو كذلك قادر على إحياء الموتى في الحياة الآخرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾(البقرة:٢٤٣) وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾(البقرة:٢٦٠).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ۞ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(البقرة:٧٢-٧٣)، ومما ورد في هذا ما أجراه الله سبحانه وتعالى لعبده ورسوله عيسى عليه السلام من إحياء الموتى بإذن الله، وكذلك إحياء الأرض بعد موتها، والآيات في هذا كثيرة...



إن الدعوة إلى الله عز وجل تحتاج إلى طول ممارسة وصدق مع الله سبحانه وتعالى وحسن سلوك، يتمثل فيه القدوة الحسنة وثبات على الحق وحكمة في التعامل مع الناس، وعدم يأس وصبر على البلاء، وفهم صادق لنصوص الكتاب والسنة، وزهد عما في أيدي الناس وإبراز لمحاسن الإسلام والسعي في تحويل الإسلام من الجانب النظري البحت إلى الجانب العملي...

ج- بيان أن الإعادة أهون من البدء -أي في نظر الإنسان- والكل هين في حق الله سبحانه وتعالى. وهم يعترفون بأن الذي بدأ الخلق هو الله وحده، فإذا آمنوا بأن الله عز وجل هو الذي بدأ الخلق فقد لزمهم أن يؤمنوا بما هو أهون من ذلك وهو الإعادة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾(يس:٧٨-٧٩)، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۞ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لاَ تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلاَ تَذَكَّرُونَ﴾(الواقعة:٥٨-٦٢).

د- لفت النظر إلى بعض مخلوقات الله سبحانه وتعالى التي هي أعظم وأجل من خلق الإنسان، وكأنه قيل لهم: أفيعجز الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة أن يعيد هذا المخلوق الضعيف -وهو الإنسان- إلى الحياة مرة أخرى، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾(النازعات:٢٧)، ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(غافر:٥٧).

ومن أساليب الدعوة في القرآن الكريم، استخدام العدل معهم والوصية بالتعامل معهم بالعدل، فالظلم قبيح في منهج الإسلام حتى مع العدو.

من ذلك أن القرآن عندما يذكر بعض مساوئ الأعداء لا يعمم الحكم في حقهم عندما يكون بعضهم أبرياء من ذلك، وإنما يسند السوء إلى بعضهم كقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾(آل عمران:٧٥)، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾(التوبة:٥٨)، ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾(آل عمران:٦٩).

ومن أساليب القرآن الكريم في الوصية بالعدل مع العدو، قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨)،



وفي شأن اليهود يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾(المائدة:٤٢). ويحذر ﷻ من الخيانة حتى مع العدو فيقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾(الأنفال:٥٨)، أي أعلمهم بطرح العهد الذي بينك وبينهم، حتى تكون أنت وإياهم مستوين في العلم بذلك وحتى لا تفاجئهم بالقتال، فإن ذلك خيانة والله لا يحب الخائنين.

وقال تعالى: ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾(الأنفال:٧٢)، ويقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾(الممتحنة:٨).

ومن أساليب القرآن في الدعوة، ذكر بعض محاسن الآخر، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾(آل عمران:٧٥)، ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾(آل عمران:١١٣-١١٤)، ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾(المائدة:٨٢-٨٣)، ويقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾(القصص:٥٢-٥٣).

ويقول ﷻ عن صالحي أهل الكتاب: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۞ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾(الإسراء:١٠٧-١٠٩).

ويقول تعالى عن أتباع عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾(الحديد:٢٧).

ومن منهج القرآن في الدعوة، فتح باب التوبة لكل العباد مهما كانت معاصيهم، وعدم تيئيسهم من رحمة الله ﷻ، ورد ذلك بأساليب متنوعة، من ذلك قوله تعالى في شأن المشركين: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(التوبة:٥)، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾(التوبة:١١).

وقال تعالى في شأن المنافقين: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾(النساء: ١٤٦-١٤٧).

وقال في شأن النصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة -تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۞ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٧٣-٧٤).

وقال ﷻ في شأن طوائف الكفر مقرونين بذكر المؤمنين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٦٢).

وقال تعالى في شأن جميع العصاة: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر:٥٣).

ومن منهج الإسلام في الدعوة والترغيب في الإسلام، التوجيه بحسن التعامل مع كل من أظهر الإسلام وعصمة دمه وماله وعرضه، ومما جاء في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾(النساء:٩٤).

وأخيراً فإن الدعوة إلى الله ﷻ تحتاج إلى طول ممارسة وصدق مع الله ﷻ وحسن سلوك، يتمثل فيه القدوة الحسنة وثبات على الحق وحكمة في التعامل مع الناس، وعدم يأس وصبرٌ على البلاء، وفهمٌ صادق لنصوص الكتاب والسنة، وزهد عما في أيدي الناس وإبراز لمحاسن الإسلام والسعي في تحويل الإسلام من الجانب النظري البحت إلى الجانب العملي، والاهتمام بالتزكية للنفوس والتدرج في حمل الناس على التكاليف -وبخاصة في المجتمعات التي كثر فيها الانحراف- وحُسن اختيار الأساليب والألفاظ التي تفتح البصائر لمعرفة الحق وترغب فيه، إلى غير ذلك مما لا يمكن أن يعدَمه مَن يصدق مع الله ﷻ. ■

(*) جامعة صنعاء / اليمن.



ملامح التغيير الحضاري

د. أحمد نصري *

إن الأمة الإسلامية تملك رصيداً هائلاً من التجربة التاريخية والحضارية، وتملك كذلك خصائص ومميزات تتمثل في صفات العدل والكرامة والإنسانية التي لا تزال مفقودة في الأمم الأخرى مهما ادعت الرقي والتقدم والتحضر؛ حيث لا تنجو من التمييز والتعصب والروح العدوانية تجاه الآخر، والشعور بالتعالي والتمدن الأحادي مما يؤدي إلى الصراع والنزاع، ويفقدها معنىً إنسانياً في حضارتها وعطاءً عالمياً في تمدنها، وامتداداً تاريخياً في تواصلها الحضاري والتاريخي. لكن تبقى مشكلة الأمة الإسلامية، في الانسحاب من الفعل الحضاري، والخروج من معركة التدافع الحضاري؛ حيث انحسرت مساحات فاعلية الأمة الإسلامية. والسببُ غياب المشروعات الحضارية الطامحة ومن ضمنها مشروع التغيير، وغياب الشهود الحضاري نتيجة غياب فقه السنن وفقه المقاصد. ومن ثم لم تتبلور معالم التغيير لانعدام القناعة النفسية بالتغيير، وغياب رؤية شاملة لإبصار الحاضر واستشراف المستقبل، والقدرة العلمية والعملية على رؤية البديل والمدافعة لصنع التغيير وإنجازه ليتحقق التمكين والنهوض الحضاري.

الانتظار والترقب

والمشكلة الأخرى التي تعاني منها الأمة، الانتظار والترقب حتى تلفظ الحضارة القائمة حالياً أنفاسها دون صنع أي شيء من الصلاح والتمكين، ودون معرفة علمية بأن للنهوض والشهود شروطاً ومستلزمات ومؤهلات وتقنيات، وذلك



بالعلم بعلم السنن والاعتماد على مجموعة من المشروعات، ليتحقق مشروع التغيير وتشكيل البديل المطلوب من خلال الإيمان بخلود الرسالة الإسلامية وخاتميتها مهما حيك ضدها، والاعتراف الروحي والعلمي والعملي بأن قيام الأمة الإسلامية يستلزم العلم والعمل لإعادة تشكيلها من جديد، وبلورة معالمها الحضارية والإنسانية من خلال الإيمان بمعالجة الأخطاء الذاتية، والدفع بدورة الفاعلية والنهوض والانطلاق، والأخذ بعين الاعتبار السنن التداولية للحضارة، وذلك بتمثل الرؤية القرآنية الشاملة، وتحقيق مشاريع الاستخلاف والتسخير والعمران، لممارسة مشروع التغيير المأمول وتحقيق البديل المطلوب.

الخطاب الإسلامي والتغيير

إن الخطاب الإسلامي عن التغيير، لم يكن وليد ظروف غير طبيعية وأعمال غير اختيارية تفرض على الإنسان فرضا يشل قدرته على الحركة والفعل، بل كانت وليدة ظروف طبيعية يستطيع التحكم فيها وإخضاعها لإرادته، واختياره في حدود النظام التوحيدي الكامل والشامل الذي أتت به الرسالة الإسلامية. فهي تنطلق من موقع الإرادة والاختيار لا من موقع القهر والإجبار. لهذا كان الإنسان المسلم صانع التغيير، لأنه هو الذي يمثل للحياة حركتها العملية في نطاق البناء الحضاري والتاريخي. فقد جاءت الآيات الكريمة التي تتحدث عن الواقع الفاسد، فتربطه بالإرادة الإنسانية كما في قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(الروم:٤١).

الإنسان هو محور الحضارة ووسيلتها وهدفها ومعيارها. وتقاس الحضارات بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان وتنمية مواهبه وإطلاق ملكاته ورعاية قابلياته، وتحقيق وعيه بذاته وانسجامه مع الكون والحياة والارتقاء به، ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري الذي يكرم الإنسان ويكرم به.

لقد انطلقت الآلام الإنسانية من خلال الاختيارات العملية التي يجسدها الإنسان، في سلوكه العام والخاص على الصعيد الفردي أو الاجتماعي. فهو الذي صنع آلامه وتدهوره وتراجعه لأنه صانع لأسبابها الطبيعية في الحياة الحضارية والبيئية بإرادته واختياره.

تغيير الإنسان

فمنطلق مشروع التغيير إذن، ينبغي أن يبدأ بصياغة الإنسان انطلاقا من إرادته واختياره، انسجاماً مع قوله سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾(الأنفال:٥٣). فتغيير الواقع المعيش رهين بتغيير ما بالداخل والاستعداد الذاتي لهذا التغيير، وذلك من خلال تغيير تصورات الفرد وأفكاره ومشاعره، تجاه القضايا التي تواجهه، وتجاه الفعل الاجتماعي المحيط به.

وقد حاول الإسلام أن يضع للإنسان المسلم منهجاً تربوياً تغييرياً يرسم فيه للإنسان المنهج الذي يواجه به الكون بكل دقة وتأمل وبكل وعي ومعرفة، ليبلور على أساسه مسؤوليته الكاملة عن الحياة، وذلك ليلتقي التغيير الفكري والروحي والعلمي بالتغيير العملي، ويحقق الصياغة الإسلامية الجديدة للإنسان الذي بواسطته -فردا وجماعة- يمكن إعادة البناء وتحقيق التدافع الحضاري.

إن صياغة الفرد، صياغةٌ تقوم على أساس إبراز خصائصه الإنسانية العليا وتطهيره من الداخل، سواء من المفاسد أو من الهزائم النفسية المتواصلة، ومحاولةُ بعث كمال إنسانيته وانبعاثِ سمو فكره وروحه وشعوره وسلوكه؛ انطلاقاً من مبادئ سليمة وغايات نبيلة وأخلاق قويمة وروابط تحقق الوحدة والتكامل والتكافل والعدل وتمنع الفرقة والفساد والتدمير والصراع.

الإنسان محور الحضارة

وبهذا نستطيع أن نبني حضارة إنسانية تقوم على أساس المساندة والتوازن والسير إلى التمكين والنهوض فيتحقق المشروع التغييري المنشود. يقول عمر عبيد حسنة: "إن الإنسان في الحضارة الإسلامية، هذا المخلوق المكلف المتميز بالعقل الذي يمنحه القدرة على الاختيار، هو محور الحضارة ووسيلتها وهدفها ومعيارها في الوقت نفسه. وإنما تقاس الحضارات بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان، وتنمية مواهبه، وإطلاق ملكاته ورعاية قابلياته، وتحقيق وعيه بذاته وانسجامه مع الكون والحياة، والارتقاء به، ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري الذي يكرم الإنسان ويكرم به.



ولما كان الإنسان وسيلة الفعل الحضاري وأداته، وكان محله وهدفه أيضاً، فإن الإنجاز الحضاري سوف يكون عرضة لمجازفات وتجاوب ومخاطر وعوارض وأهواء، وتعتبر من إصابات الإنسان نفسه بسبب علمه المحدود، ومعارفه النسبية، وميوله المتنوعة وغرائزه المتدافعة، إضافة إلى عجزه عن إدراك الحقائق الغيبية عن النشأة والمصير التي لا تزال تشكل له قلقاً... لذلك تشتد الحاجة به إلى الموجه لطاقاته والمرشد لمسالكه، من مصدر خارج عن نفسه يمتلك العلم المطلق الذي لا يحده زمان ولا يقيده مكان...

ونستطيع أن نقول: إن الحضارة الغربية، وإن استطاعت بأشيائها وقوتها أن تطفو حضارياً وتكسب بعض الجولات في الصراع الحضاري، إلا أن العبرة دائماً بالعواقب والمآلات وليس بالنتائج القريبة. فكثيراً ما حمل لنا التاريخ دلالات حضارية؛ على أن الأفكار والعقائد تبقى أقوى من الأشياء والسياسات، وأن قيم المغلوب عسكرياً كانت أقوى من عسكر الغالب، وأن الحضارة الإسلامية هضمت الكثير من الهجمات، والاجتياحات الاستعمارية، وانتهى الغالب إلى اعتناق حضارة المغلوب، وهذا ما لا نراه إلا في تاريخ الحضارة الإسلامية لأنها حضارة الفطرة، حضارة الإنسان.

رسالة الإنسان المثقف

لكن، ما هي وسائل مشروع التغيير؟ الإجابة عن هذا التساؤل تكمن أولاً -وقبل كل شيء- في بناء الإنسان صانع التغيير، ذلك لأن النهوض الحضاري والقيام بمشروع التغيير، رسالةُ الإنسان المثقف ذي الوعي الأصيل، الساعي إلى تحويل أصالته الداخلية ودفعته الإيمانية إلى قيم كلية وتصورات شاملة لبناء حضارة عالمية إنسانية كالتي تجسدت في مجتمع المدينة العالمي الذي أسسه الرسول الخاتم صلوات الله عليه وسلامه، وعكف على إعادة توليده عبر التاريخ الإسلامي. المثقف المسلم صانع الثقافة الإسلامية التاريخية التي حملت معها بذور الحضارة العالمية حيثما حلت وارتحلت عبر القرون الاثني عشر التي فصلت لحظة ولادة الحضارة الإسلامية وكبوتها الأخيرة في مطلع القرن الثالث عشر من الهجرة... "فالإنسان المثقف" في جوهره ناقد اجتماعي، إنه الشخص الذي همه أن يحدد ويحلل ويعمل من خلال ذلك، على المساهمة في تجاوز العوائق التي تقف أمام بلوغ نظام اجتماعي أفضل، نظام أكثر إنسانية وأكثر عقلانية.

إن مهمة المثقف المسلم المساهمةُ الرئيسة في صياغة مشروع التغيير بإحداث ثقافة النهضة، وتأكيد القيم الأساسية والآليات الضرورية وتحرير الإنسان -فرداً وجماعة- من الهزيمة النفسية، وتركيزه على قدراته وإمكانياته في إعادة البناء والنهوض الحضاري المنشود، وإقامة مجتمع إنساني يقوم على العدل والإحسان ونبذ الاستكبار، بتحقيق العمران وتفعيل مشروع الاستخلاف، وتيسير وظيفة التسخير.

إنجاز البناء الحضاري المنشود

إننا فعلا في حاجة إلى مثقف يقوم بتوجيه مشروع التغيير توجيها بنّاءً بهدف إنجاز البناء الحضاري المنشود للبشرية كافة، وإخراج الأمة الإسلامية من الفوضى والتسيب والانهيار والتجزئة المقيتة والتشتيت المخطط لطاقاتها، والقهر السياسي والفقر والحرمان... فهذه المعوقات تقوم دائماً حائلا أمام أي مشروع تغييري وإصلاحي هادف، يقود أبناء الأمة من ميادين مختلفة ليبني بهم المستقبل المأمول وذلك:

أولاً: تحرير النفوس من الهزيمة، والدفع بها إلى التحرر والتوحد، والإنجاز الحضاري المعتمِد على الإرادة والاختيار والقوة النفسية الدافعة إلى الأمام.

ثانياً: تحديد الموقف المعرفي من الحضارة الإسلامية، وذلك بدراسة تراثنا الحضاري وإعادة قراءته في ضوء ما استحدث من مناهج، لنمتلك ماضينا وننطلق لبناء حاضرنا ونستشرف مستقبلنا.

ثالثاً: الإجابة على الأسئلة الآتية: هل الإسلام صالح لهذا الواقع المعقد والمتشابك؟ كيف نكيف الإسلام مع هذا الواقع؟ كيف نتجاوز واقعنا الموروث لنكون في مستوى التحديات المعاصرة وقيادة الإنسانية إلى شاطئ الأمان؟ لماذا تقدم الغربيون -حسب قول شكيب أرسلان- وتخلفنا نحن رغم أننا مسلمون؟..

الإجابة تتطلب من المثقف المسلم التركيز على ثلاث مستويات في التعامل مع مشروع التغيير... كيف نتعامل مع الوحي؟ كيف نتعامل مع الواقع؟ كيف نتعامل مع العقل؟

محركات السلوك البشري

فلفهم الوحي وتعاليمه ينبغي إعمال العقل بفطرته ومكتسباته؛ إذ لا يمكن فهم الوحي وتنزيله في الواقع دون إعمال العقل،



كما ينبغي فهم الواقع واستيعابه وإدراك متطلباته. ففهم الواقع ليس مجرد ظن أو تخمين، وإنما هو فهم واضح وعميق مبني على معطيات دقيقة وواضحة. وعلى هذا الأساس ينبغي للمثقف المسلم:

أولا: أن يتمعّن في المنهج المعرفي في القرآن الكريم ليرى أن قيم الهدم والتخريب والعصيان، وقيم البناء والتعمير والاستجابة، ممتدة في التاريخ البشري؛ يعني أنها قيم لا تقف عند لحظة تاريخية ولت، وإنما تعاد عبر الأزمنة والأمكنة كلما تهيأت شروطها ومُهِّدت سبلها، لأنها قيم ثابتة وإن تغيرت الأشكال والأسماء والوسائل!..

هذا الفهم يجعلنا متحفزين لإدراك الخلفيات التي تُحرك السلوك البشري، ويمنحنا الوعي الكافي من أجل النفاذ إلى عمق القضايا وصلبها، فلا نقف من الجزئيات والتفريعات التي قد يكون ظاهرها فيه الخير، كما يوهمنا الداعون إليها والحاملون لواءها، وباطنها إنما ينطوي على الشر -إن لم نقل الشر كله- متى وقفنا للتأمل والتمحيص، فنتأكد تدبراً من أن الزبد يذهب:

﴿جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾(الرعد:١٧). نعم، يبدو أن هذا هو الإطار الكلي الذي يتحرك على هديه المثقفُ المسلمُ لإحداث التغيير.

ثانيا: أن يضع أرضية صلبة يحدد فيها الموقف المعرفي من ذاته والموقف المعرفي من الآخر، وهذا يتطلب منهجية علمية في قراءة الذات وإدراك أسباب التخلف والتردي والانتكاس وقراءة الآخر لمعرفة أسباب التقدم ووسائل البناء. فقراءة الذات ليست إحياءً آلياً لمخلفات الماضي أو استنساخاً بليداً

إن مهمة "المثقف المسلم" المساهمةُ الرئيسة في صياغة مشروع التغيير بإحداث ثقافة النهضة، وتأكيد القيم الأساسية والآليات الضرورية وتحرير الإنسان -فرداً وجماعة- من الهزيمة النفسية، وتركيزه على قدراته وإمكانياته في إعادة البناء والنهوض الحضاري المنشود...

لثقافة الأسلاف، ولا انبهاراً ساذجاً بالآخر (الغرب)، وقطيعة موهومة مع الذات، ولكنه آلية من آليات قراءة مقولات الفكر القديم وأطره المعرفية، لإحداث تحول وتطور في أصوله المعرفية ومبادئه العملية، وذلك بالدفعة الإيمانية القرآنية لبناء حضارة جديدة. ولن يتأتى لنا تحقيق ذلك إلا بفضل العودة إلى قراءة حضارتنا بعيون جديدة، ومواكبة التجربة التاريخية والحضارية التي يخوضها المجتمع الإسلامي منذ اصطدامه بالحضارة الغربية.

المواكبة الفعالة

فالمواكبة الفعالة تنتقل من التعبير عن التجربة الفريدة للأمة الإسلامية، إلى التنظير لها وتوجيهها نحو آفاق النهوض والشهود الحضاري، استناداً إلى ثوابت وأصول إسلامية. وهذه القراءة ستجعلنا نمتلك تراثنا وتجربتنا التاريخية والحضارية، ونبني حاضرنا ونستبصر مستقبلنا. وبهذه الآلية نستطيع النهوض، فلا نسقط في الدعاوى المتتالية إلى القطيعة الإبستمولوجية مع تراثنا الثقافي الأصيل والثابت، والدعاوى الساذجة إلى تبنّي النموذج الغربي، بل علينا أن نستخدم المقولات والمناهج السليمة النابعة من تراثنا التاريخي والإنساني والمعرفي، ثم امتلاك القدرة على التحليل والتنظير ثانيا، وإعادة تحريك فكرنا المعاصر وفقاً لما تمليه التجارب العلمية الحديثة، حتى نكون في مستوى التحدي الحضاري المطلوب.

إن هذه الأدوات من شأنها أن تحقق في آن واحد امتلاكنا العلمي للتراث ثم تجديد فكرنا المعاصر. ومن هنا نربط بين الماضي والحاضر لبناء المستقبل، بل نعطي للحضارة الإسلامية وتاريخها الدورَ الأول في عملية التغيير من أجل البناء وإعادة النهوض. وذلك بدرايتنا بعلم السنن وفقهنا بعلم المراحل الحضارية وأسباب بنائها ونشوئها وسقوطها، حتى نتمكن من استيعاب منطق التحدي الحضاري استيعاباً نقدياً من غير خضوع ولا استلاب، ومن ثم نمتلك حاضرنا بامتلاك ماضينا، أو نمتلك ماضينا بامتلاك حاضرنا بمفهوم غير منفصم وغير مبتور، بل هو بناء مرحلي تدريجي يقتضي بناءُ الثاني الرجوعَ إلى الأول.

وهذا يقتضي تسامحاً فكرياً كبيراً وتفتحاً شاملاً، ورؤية الواقع واستحضار الغيب والتاريخ... وذلك في أفق وضع الملامح الأولى لمشروع التغيير لبناء حضارة إنسانية ننتسب إليها، نابعة من ذاتنا، ونستشعر تفاعلها معنا وغير مفروضة علينا من قبل الآخر. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الحسن الثاني / المغرب.



عزائي

في امتداح النبي ﷺ

محمد ولد أعلي *

معانيكَ كنهٌ لا يحيط به كشف — وحبك شهدٌ لا يُمل له رشف
فمنك استمد البحر معنى سخائه — وفيك تناهى البر والشرف الصرف
وعنك قوى المُداح خارتْ وقصرت — فلا مادحٌ إلا ويغمره الضعف
وكيف وأنت المصطفى قبل نشأة الـ — ـخلائق.. نورٌ قبل تكوينها يطفو
يحيطك معنى في تعابير شاعر — تعثرت الأفكار في ذهنه تغفو؟
ولو أن نبْتَ الأرض أقلام كاتب — وأبحُرُها حبرٌ وظاهرها صُحْف
وكان جميع الخلق من عهد آدم — إلى اليوم.. تاليهم لأولهم يقفو
بمدحك.. لا شغلٌ سواه لديهمو — لما اسطاع أن يحصي شمائلك الوصف
فما لك ند جل شأنك عنهمو — وما لك فيما قد برى ربنا صنف
وما الناس إلا كالصغار حظوظهم — تسيّرهم لا جو بينهمُ يصفو
فإن جهلوا.. بالحلم تغسل جهلَهم — وإن منعوا تَعطي وإن ظلموا تعفو
كذاك براك الله روحا مُطهرا — له الفضل يهفو مثلما نفسه تهفو
وكيف لشخص أن يروم امتداحَه — وكل الذي قد قيل في مدحه حرف
وما لي عزاء في امتداح محمد — سوى المتنبي وهوْ شاعرنا السقف:
"فواعجبا مني أحاول نعتَه — وقد فنيتْ فيه القراطيس والصحْف
وما حارت الأفهامُ في عُظم شأنه — بأكثرَ مما حار في حسنه الطرف"

(*) شاعر موريتاني. القصيدة الفائزة بالمركز الثاني في فئة الشباب بمسابقة حراء الكبرى للمديح النبوي بموريتانيا بتاريخ ٢٠١٠/٢/٢٣.





الكاريكاتير القرآني

أ.د. عماد الدين خليل *

إن في القرآن لعشرات من الصور والعروض "الكاريكاتيرية" يرسمها كتاب الله على طريقته الفنية المعجزة بكلمات قلائل لا تعدو أصابع اليد الواحدة، كلمات قلائل ولكنها تمنحنا بضرباتها المركزة المرسومة، النقائصَ الأساسية في الموقف البشري، فتجسدها لنا كما لو كانت رسماً أو نحتاً.

فلنعاين بعضاً من هذه الصور..

يقول فرعون لأتباعه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾(غافر:٢٩)، فكأن أنظار الناس جميعاً، ممن ابتُلوا بحكم فرعون وألوهيته المزيفة، لا يسمح لها بالعمل إلا بعد أن تستحصل جوازَ مرورٍ إلى العالم في عيني فرعون نفسه؛ ما يراه تراه.. أو بعبارة أوضح؛ ما يريد لها أن تراه، تراه.. وما لا يريد، لا تراه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى﴾!..

فإذا ما تذَكرنا أن الرؤية ها هنا لا يعنى بها المشاهدةُ الخارجية للأشياء، أي النظر فحسب، ولكنها تعني ما يَعقب الرؤية من اتخاذ موقف شخصي إزاء الأشياء والأحداث، تمليه العاطفة أو الهوى أو المصلحة أو الوجدان أو الظن أو التخمين.. أدركنا أن فرعون يريد أن يقول للناس: إن عليكم ألا تفكروا وتتخذوا مواقفكم وتختاروا إلا من خلالي، من خلال ما أفكر به وما أتخذه وما أختاره.. وبعبارة أخرى: إنّ



عليكم أن تجمدوا فكركم وأن تكفوا عن اتخاذ المواقف وأن تتوقفوا حالا عن الاختيار، لأنني أنا فرعون، ربكم الأعلى.. أنا الذي سأفكر لكم وأرسم لكم المواقف، وأنا الذي سأختار لكم: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وسواء أكان فرعون مقتنعا بصواب ما يدعو إليه ويرغمهم عليه أم غير مقتنع فالأمر سواء. والمهم أن عليهم ألا يروا ويفكروا ويختاروا إلا من خلاله وبه.

هل هناك أكثر وضوحاً في خطوط الصورة لو رُسمت بالألوان أو نحتت على المعادن والصخور من هذه الكلمات؟ إنها تجعلنا نحزن على ما مني به أتباع فرعون وكل فرعونٍ من عبودية مطلقة وإذلال كامل، تُمسخ فيه إنسانية الإنسان ويُطمس على عقله وإرادته ووجدانه، ولا يتبقى منه إلا أجهزة حسية من بصر وسمع ولمس، يستخدمها الطغيان أدواتٍ فحسب لتمرير رؤيته وتنفيذها!..

والسخرية هي بداية الرفض ونهايته أيضاً، من الصيغة التي يريد أن يتحقق بها الدكتاتور في كل زمان ومكان، كما يرسمها لنا الكاريكاتير القرآني:

تقف أمة بكاملها وقد استأصل أبناؤها -بطريقة ما- عقولهم وإرادتهم ورؤيتهم الخاصة، وطمس على معالم شخصيتهم. تقف طوابيرَ بصمت مطبق وكأن على رؤوسها الطير.. وواحدا إثر واحد يتقدم إلى سدة فرعون.. ينحني انحناءة كاملة ثم يتلقى الأمر بأن يفعل كذا ولا يفعل كذا.. تنفيذا حرفيا لأمر الطاغية.. ينسحب بعد انحناءة أخرى ويذهب إلى مهمته.

يتقدم الآخر لكي يريه فرعون ما يرى، ويهديه إلى سبيل الرشاد!! وهكذا حتى نهاية الطابور.. وتتكرر العملية كلما أحبت جماعة من المواطنين أن تفكر في شيء أو تُقْدم على فعل شيء.. لابد أن يقف كل واحد منها في مكانه من الطابور وينتظر دوره!.. ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾(الزخرف:٥٤).

انظروا، ها هي أمة بكاملها تفقد القدرة على الرؤية وتُستَلب إرادتُها، وتُمحى الملامح الشخصية لكل واحد من أبنائها. تُستلّ من تكوينهم أفكارُهم ومطامحهم وأحلامهم، تُمسح حتى بصماتُ أصابعهم.. لا يتبقى لهم أيما وجود متميز، فيفقدون ثقلهم ويخف وزنهم بالتالي.

وإنها لصورة تجسم السخرية بالكلمة، حتى لنكاد نلمس شخوصها ونرى حركتهم رأي العين: الخفة والارتفاع في الهواء، كأن ليس لهم أي ثقل يتعاملون به مع جاذبية الأرض.

ومع الخفة تأرجح ذات اليمين وذات الشمال لا يستقرون على شيء. وبإشارة من فرعون الطاغية، يتحركون كيفما يشاء هو، لا ما يشاءون هم؛ يذعنون ويطيعون لكل أمر يصدره إليهم ويتجهون حيثما مد أصبعه.

ونتصور الطاغية وهو يجلس منتفخا على عرشه، يلعب على أمته أو بالأحرى يلعب بها بسهولة ومقدرة تثير الإعجاب! إلى اليمين فتندفع إلى هناك.. إلى اليسار، فتتحول صوب اليسار.. وقوفا، فتتجمد في أماكنها.. لا يكلفه ذلك أي جهد حقيقي، فهي أخف وزنا من أن تكلفه شيئا. ليس ثمة أي ثقل في عقولها وأفئدتها.. لقد بذل جهده الصعب يوم قام "بعملية" استئصال الوزن وتبديده. أمّا وقد نجحت العملية واستخف قومه، فإن طاعتهم العمياء مسألة غاية في السهولة، وهي تأتي جزاء وفاقا على الجهد الشاق الذي بذله أول مرة.

ولو لم يكن هؤلاء يملكون الاستعداد للتضحية بثقلهم الحقيقي رغباً أو رهباً، لو لم تكن شخصية كل واحد منهم على درجة محزنة من التفكك والضعف والهزال، لو لم يكونوا قد اختاروا ألا يكون لهم أيما موقف أو رأي أو وجهة نظر في أية قضية أو مشكلة.. لَمَا استطاع فرعون أن يسوقهم إلى هذا المصير المخزي، ولما استخفهم أو استخف بهم هذا الاستخفاف.

أمّا وقد امتلكوا الاستعداد للأمر، فإن فرعون عرف كيف يجردهم من كل ثقل ويحيلهم إلى أصفارٍ لا تتضمن أية قيمة إيجابية، وأن يفعل بهم ما يشاء.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾... إنها كلمات ثلاث، ولكن اللوحة التي ترسمها بالأحرف تظل شاخصة على مدى الأبصار، لأنها تتضمن صيغة "كاريكاتيرية" تعرف كيف تجسد الموقف وتبرز عيوبه وتناقضاته بالخطوط والظلال والألوان، فتجعلنا نضحك منه ونرثي له.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾(الإسراء:٣٧)، لكأنما يأتي النداء من فوق، من قدرة فوق قدرة الإنسان ورؤية فوق رؤية الإنسان. تنظر إلى وادي النمل البشري فترى واحدة منها تتضخم وتتضخم وتنتعش وتتطاول.. ثم ماذا تكون؟!

وما تلبث اللطمة القاسية اللطمة الساخرة، أن تنقض على الخد المتصعر، على الرأس المتطاول، على الجسد المتمطي.. لكي تُلفِت الطاغيةَ الذي يتحرك عند أسفل جدار في العالم إلى حجمه الحقيقي، وتعرّف



طوابيـر الأقـزام المخدوعيـن بـه، الذيـن خيل إليهـم -لضآلتهـم وحقارتهـم- أنه فعـلاً يملـك القـدرة علـى أن يمتـد بطولـه صـوب السـماء، وأن يسـتعلي عليهم وهـم يتحركـون كالحشـرات عنـد أقدامـه، تعرّفهـم بهـذا الـذي خدعـوا بـه.

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾(الإسراء:٣٧).. وماذا يكون الإنسان.. أكبرُ إنسـان في العالم.. أكثرُ الناس انتفاخا وتضخما وامتداداً وتطاولا.. ماذا يكون إزاء طول الجبال وشموخها، وعمق الأرض وأغوارها السحيقة؟ لا شيء، لا شيء..

إن الصورة تسـمّر أنظارنا على هذا المشـهد المترع بالسـخرية والجهل والغباء والاحتقار، مشهد الإنسان الطاغية وهو يقف قبالة واحد من جبال العالم.. يتطاول فـلا يعـدو إحدى حجارته الملقاة على السـفح، يمد جسـده ويمطيه إلى آخر نقطة يسـتطيع فيها جسـدُه أن يبلغها طولا.. فلا يتجاوز صخرةً تافهة أسـقطتها الأعاصير من هذا الجانب أو ذاك من واجهة الجبل فلم تحدث فيه إلا كما تنقص قطرة الماء المتبخـرة عـن البحر الكبير. ومصيبـة أتباعه أنهم -لِمَا يعانونـه من قزمية- ينظرون إليـه وحـده معجبين بامتـداده، ولا ينظرون إلى الجبل نفسـه.. ربما لأنهم لا يرون إلا طاغيتهـم وحـده، وربمـا لأنهم يخافون أن يلتفتوا عنه إلى أي شـيء آخر غيره، وبخاصة إذا كان الالتفات لغرض المقارنة، وربما لأنه قد استلَب حريتَهم وقدرتهم علـى الحركـة والالتفـات، وربمـا لأنه أتـرع قلوبهـم وعقولهم بالخـوف والرعب وأفقدهـم أيـة قـدرة على القيام بحركة ذاتيـة متصورين أن أية مقارنـة بينه وبين أي شيء آخر إنما هي خروج عن أمره وتمرد على ربوبيته.

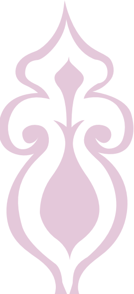
ولكننـا -نحـن- ننظر إلى الصـورة القرآنية المؤثرة من الخـارج، فنرى الطاغية ونـرى الجبـل، نـرى طول هذا ونرى ارتفـاع ذاك.. تطاوُل هذا وشـموخ ذاك.. فلا نعايـن إزاء كتلة الجبل الهائلة سـوى شـيء لا يكاد يُرى.. كتلـة صغيرة تافهة ملقاة عنـد أسـفل الجبل فأنى لها الطموح إلى أن تسـامت الجبل يومـا وتبلغ طوله؟ إنها مسـألة مسـتحيلة كاسـتحالة دخول الجمل سـم الخياط.. مبهظة ثقيلة قاسية، لأنها كالكابوس لا يمكن أن تتمخض عن أية نتيجة حتى لو مضى عليها ملايين السـنين مـن المـط والتطاول، فكيف وعمر الإنسـان لا يعدو عن عقود قليلة من السـنين؟!

ونـراه.. الطاغية.. وهو يضرب بأقدامه الأرض.. بعد إذ أدرك عجزه عن موازاة الجبل، يضربها بعنف وعصبية، محاولا خرقها وتفتيت قشرتها الصلبة ولن يستطيع.

وأتباعـه الأقـزام داخـل الصـورة، ينظـرون إليه معجبيـن وقد سـمرت عيونهم وعقولهـم بجسـده العملاق، وهو يتطـاول ويتطاول وبأقدامـه القوية وهي تضرب الأرض، فما يزدادون إلا تضاؤلا وإعجابا!..

وننظـر نحـن من خارج الصـورة فيأخذنا المنظر المؤثـر ويجعلنا نضحك على تفاهة الإنسـان ونبكي لمأساته. فهو التناقض القاسي الذي يُضحك ويُبكي! ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾(فصلت:٢٩).

إذن فقد انكشفت اللعبة وتمزقت الأستار.. وأية لعبة لا تتكشف يوم الحساب؟ هـا هـم الطغاة والأرباب والمتألهـون والفراعنة.. يقفون طوابيـر على حافة جهنم،



إن في القرآن لعشرات من الصور والعروض "الكاريكاتيريـة" يرسمهـا كتـاب الله على طريقتـه الفنية المعجـزة بكلمـات قلائـل لا تعـدو أصابـع اليـد الواحدة، لكنهـا تمنحنا بضرباتها المركزة المرسومـة، النقائض الأساسية في الموقف البشري، فتجسدها كما لو كانت رسماً أو نحتاً.

خاشعين، ناكسي رؤوسهم ﴿لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾(إبراهيم:٤٣)، يقفون منتظرين دورهم في الدخول إلى حيث يكتوون بالنار التي لم يوقفهم لهيبها وسعارها عن ممارسة ألوهيتهم هناك يوم كانوا يسرحون في الأرض ويمرحون، يقفون الآن وهم يرتجفون خوفاً وهلعاً.. إنهم بعد دقائق أو لحظات سيؤخذون من نواصيهم التي تطاولت على الله ﷻ كذباً وغروراً، ويجرون من أقدامهم التي مشوا بها طويلا على رؤوس العباد، ويرمى بهم في النار التي ازداد تلمظها وهي ترى هذا الصيد الثمين يقف على بعد خطوات.

ومن الصف الطويل، يقفز بين الحين والحين أناس لا نكاد نراهم ونميزهم إلا بصعوبة.. إنهم أصغر حجما بكثير من هؤلاء الأرباب، وهم مضغوطون إلى درجة لا يكادون يرون معها لكثرة ما مارسوه هناك في الحياة الدنيا من خوف وجبن وملق ونفاق وصغار والتصاق بالطغيان.. يتقافزون من هنا وهناك، منادين بأصوات لا تكاد تسمع هي الأخرى: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾..

وإنه لمنظر مضحك حقاً، وإن الإنسان ليظل يضحك حتى تدمع عيناه وهو يرى إلى هؤلاء الأقزام يتقافزون بين أقدام الأرباب، فالناس -أغلب الظن- محشورون حسب أوزانهم، ولكن الذي أطمع هؤلاء الأتباع المتضائلون بسادتهم وجعلهم يطلبون هذا الأمر المضحك، أن يجعلوا هؤلاء السادة من الأرباب والطواغيت تحت أقدامهم وهم على ما هم عليه من ضخامة وامتلاء.. ما رأوه على هؤلاء من هلع وذلة وانكسار وخوف، سرت قشعريرته الباردة الصفراء إلى عروقهم فأخذوا يهتزون ويرتجفون رغم أنهم قريبون من لفح النار!..

إذن فهؤلاء هم السادة الكبار، هؤلاء هم الآلهة والأرباب.. لقد تبددت الكبرياء، وضاع الجبروت، وها هم يرتجفون بأسمالهم التي تفوح منها رائحة الزفت والقطران، ويحيطهم الخزي وتكتسحهم المذلة..

وإنها لفرصة نادرة لأتباعهم الصغار أن يتمردوا عليهم وأن يطلقوا سراح حشود من المشاعر والأحاسيس والانفعالات كانت قد احتبست في طبقات بعيدة من نفوسهم، يوم كانوا يمارسون مهنة العبودية والفناء في ذوات أسيادهم.. وهم يريدون الآن أن يكثفوا مقتهم وغضبهم بحركة ذات دلالة: أن يجعلوا أولئك السادة تحت أقدامهم!..

ولكن رؤيتهم التي فقدت قدرتها على الإبصار في الحياة الدنيا، تصيبهم الآن ببعض العناء، وسط دخان النار وهول الحساب، فلا يكادون يرون مرة أخرى آلهتهم وأسيادهم على طولها وامتدادها، فيكون نداؤهم المضحك ذاك: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾.

ويظل نداؤهم ذاك معلقا دون جواب.. فهم أتفه وأحقر من أن يستجاب لندائهم.. من أن يرد عليهم مجرد رد ولو بالنفي. وتلك لفتة مقصودة في كتاب الله، تستكمل بها الصورة "الكاريكاتيرية" ونحن نتخيل هؤلاء، بل نراهم ونسمعهم يرفعون النداء تلو النداء فلا يرد عليهم أحد.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَ يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج:٧٣).

إن القرآن الكريم -هنا- يتعمد أن يختار أصغر الحشرات وأحطها شأناً، لكي يضرب بها المثل ويتحدى طواغيت بني آدم وآلهتهم وأربابهم وأكبرهم حجماً أن يخلقوا مثلها: الذباب! إنه يذهب في تجسيم التناقض وفق الأسلوب "الكاريكاتيري" إلى حده الأقصى، لكي يهز الناس ويضحكهم في الوقت نفسه.

فهنا يطرح القرآن نداءه المتحدي الساخر: أيها الأرباب الذين رفعوا قاماتهم إلى السماء، يريدون أن يخرقوا الأرض وأن يبلغوا الجبال طولا.. أيتها الآلهة التي ورمت غرورا فجاوزت حجمها الحقيقي مئات المرات.. أيها الوضاعون الذين يحتكرون المعرفة العليا لأنفسهم فيفكرون للناس ويشرّعون لهم..

ها أنا ذا أتحداكم أن تخلقوا بعوضاً أو ذباباً.. أكثر من ذلك، أتحداكم أن تستردوا هباءة تافهة سلبكم الذباب إياها..

أيها الأرباب، أيتها الآلهة، أيها الوضاعون.. اخلقوا -إن استطعتم مجتمعين- ذباباً، استردوا منه ما سلبكم إياه.. ضعف الطالب، أيها الأرباب، والمطلوب.. ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج:٧٣).

إن القرآن الكريم ها هنا، لا يضحكنا فحسب، ولكنه يبكينا يقينا.. إنه ينتزع الدموع من أعيننا.. ونعرف ونحن نتقلب بين الضحك والبكاء، لماذا اختار الله جل وعلا، أن يتحدى الآلهة والأرباب بالبعوض والذباب!.. ■

(*) كلية الآداب، جامعة الموصل / العراق.





لغتي هي عالمي
وحدود لغتي هي حدود عالمي

د. فضيلة صديق *

إذا كان الإنسان المسلم هو مشروع حضاري لم يكتمل بعدُ، فإن الطفل المسلم هو مشروع ذلك المشروع. إن مكانة الطفل في تراثنا الإسلامي مرموقة، وقد كتب الكثيرون من الفلاسفة والتربويين أمثال: الفارابي وابن سينا والغزالي وإخوان الصفا... عن أهمية الطفل ومكانته في المجتمع ونادوا بضرورة رعايته منذ الولادة، بل قبل أن يولد عندما يكون جنيناً في بطن أمه، بل قبل أن يصبح مشروع حياة، وذلك باختيار شريكة الحياة أو أم المستقبل، وذلك امتثالاً لقول النبي الكريم ﷺ: "تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" (رواه ابن ماجه).

وتُجمِع كتب علم النفس على أن الطفولة هي المرحلة التي يقضيها الكائن الحي في رعايةِ وتربية الآخرين حتى ينضج ويكتمل ويستقل بنفسه ويعتمد عليها في تدبير شؤونه وتأمين حاجاته البيولوجية والنفسية والاجتماعية.[1]

وتعتبر مرحلة الطفولة من أهم مراحل النمو وأكثرها أثراً في حياة الإنسان، كما يعتبر الاهتمام بدراسة الطفولة اهتماماً بالمجتمع ذاته وبتقدمه. فأطفال اليوم هم شباب الغد ورجاله، وبقدر إعدادهم الإعداد السليم للحياة يتوفر للأمة المستقبل والتقدم والحضارة، ذلك أن الحكم على المجتمع ليس بما يتوفر لديه من إمكانيات مادية، وإنما بقدر ما يتوفر لديه من ثروة بشرية.

اللغة هي قدر الإنسان

اللغة هي قدر الإنسان الاجتماعي، فكما تكشف عن طبقته وجذور نشأته، تكشف أيضاً عن عقليته وقدراته وميوله



الفكريـة. وأبعـد مـن ذلـك، فـإن اللغة وعـاء لحفـظ التراث الإنسـاني وإنماء الثقافة ونقلها إلى الأجيال. وعن أهمية اللغة يقـول أهل النسـبية اللغوية: "لغتي هي عالمـي، وحدود لغتي هـي حدود عالمـي". فـ"اللغة هـي الذات وهـي الهوية، وهي أداتنا لكي نصنع من المجتمع واقعاً" كما يقول "بتر برجر".

وثقافة كل أمة كامنة في لغتها، كامنة في معجمها ونحوها ونصوصهـا. واللغـة -بلا منـازع- أبرز السـمات الثقافية. وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشري إلا ويبطن في جوفه صراعاً لغوياً، حتى قيل: إنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية.(٢)

مفهوم الهوية

في كتابه "تلخيص ما بعد الطبيعة" يقول الفيلسوف الكبير ابن رشد: "إن الهوية تقال بالترادف للمعنى الذي يطلق على اسم الموجـود، وهي مشـتقة من "الهو"، كما تشـتق الإنسـانية من الإنسان". وهو بهذا يعود بنا إلى مفهوم الهوية أو الذاتية في منطق أرسـطو باعتبارها "تماثل الشيء مع ذاته"، فـ"ألف" هي "ألف" وليسـت "لا ألـف". ولهذا نـرى في "التعريفـات" للجرجاني، أن الهويـة هـو الأمـر المتعقّل مـن حيث امتيازه عـن الأغيار، والامتيـاز هنـا بمعنـى "الخصوصية" و"الاختـلاف" لا بمعنى "التفاضل". ولعل ابن خلدون قد اسـتطاع أن يبرز هذا المعنى أكثر وضوحا بقوله في "المقدمة": "لكل شـيء طبيعة تخصه". وعلى هذا فانتفاء خصوصية الشيء هو انتفاء لوجوده ونفيه.(٣)

الطفل واللغة

يؤكـد الموجهون التربويون على أن: "التربية اللغوية لها مكانة بارزة، لأن لغة الكلام تسـود وتسـاند جميع نشـاطات الطفل الأخرى".(٤) ولهذا السـبب يرى "مالينوفسـكي" أن المفردات اللغوية في أي مجتمع من المجتمعات تعتبر المرآة الصادقة التي تعكـس صورة واضحة لما عليه أفراد هذا المجتمع؛ من ثقافة ونظم وعـادات وتقاليد واتجاهات. وكما هو معلوم، فإن نمو الذكاء يتم على قدر المساواة مع النضج اللغوي؛ فبدون اللغة اللفظية التي تصبغ التفكير بالصبغة الاجتماعية، من المستحيل نضـج ذكاء الطفل بصورة كاملة وهذا مـا أكده "جان بياجيه".

ونظرا لأهمية مرحلة الطفولة في مجال البحث السيكولوجي والتربوي، لما لهذه الفترة من تأثير مباشر على حياة الفرد فيما بعد، فإننا نجد مدرسـة التحليل النفسي بزعامة "فرويد"، تؤكد علـى أن السـنوات الخمس الأولى من عمـر الطفل، هي التي تكـون نواة شـخصيته. وتؤكد أيضاً علـى أهمية معاملة الطفل فـي هـذه المرحلة بكثير من الحب العطف؛ بمعنى أن سـلوك الفرد الراشـد ما هو إلا امتداد لخبرات الطفولة المبكرة. وإذا نظرنا إلى اللغة نجد أنها أحد جوانب هذا السلوك، حيث تتأثر بعوامل تكوينية وبيئية.(٥)

مصادر التربية اللغوية عند الطفل

المنـــــزل: أثبتـت الأبحـاث العلمية أن الأسـرة هـي المكان الأمثـل لتربيـة الطفـل ولتكوينـه عاطفياً ولغويـاً، حيث تلعب الرعايـة والعواطـف الأبويـة دوراً بـارزاً فـي اكتسـاب الطفل للغة، ولذلك يقول اللغوي الفرنسي "مارسيل كوهين": "يتمتع الأطفـال بأفضل ظروف للنمو، واكتسـاب اللغة خاصة عندما يتم رعايتهم بدأب وتفان منقطع النظير وبهدوء تام، من جانب الوالدين أو من يقوم مقامهما".(٦)

وللوالدين في تربية الطفل دور ذو خطر وبال، فهما اللذان "يهودانـه أو ينصرانـه". وللأم بالذات الـدور الأكبر والأعمق والأكثر تأثيراً؛ إنها تداعب صغيرها وتراقصه وتغني له وترضعه من لسانها كما ترضعه من صدرها... فإن كان المنطوق عربياً صحيحاً فصيحاً أو عامياً مخلوطاً أو مغلوطاً، جاء استخلاص الطفل على وفاقه.

دور التعليم: ينتقل الصغير بعدُ إلى دور التعليم، وقد يكون لديـه محصول لغوي صحيح أو مغلوط أو مخلوط بلهجات، والمفـروض أن تعـي المدرسـة -بـدءاً بالحضانـة والكتاب- احتمـال وقـوع هـذا الوضـع اللغوي المحـروم مـن التكامل والتناسـق، فتعمل على مواجهة هذا الاحتمال، وذلك بإشاعة جو لغوي سليم من شأنه تقريب ألسن الصغار بعضها من بعض وصولا إلى لسان مشترك، ومن أجل هذا كانت الأنظمة التربوية الوطنيـة. فهـي باسـتعمالها اللغـات الوطنية كوسـيلة للتربية، تصنع في الميدان أقوى وسـيلة لبناء تفكير الأجيال القادمة.(٧)

وســـائل الإعلام: إن الإعـلام هو تزويـد النـاس بالأخبار الصحيحة التي تسـاعدهم على تكوين رأي صائب في مشكلة من المشكلات.(٨) ولا شك أن البرامج التلفزية والإذاعية تمتاز بتنـوع كبير؛ بحيث توفر للطفـل غذاء عقلياً ووجدانياً متكاملاً إلى جانب كونها مصدراً من مصادر المعرفة والثقافة. ومعلوم أن كل تنوع في المعرفة يعكس تنوعاً في اللغة. وإننا اليوم إن



ولينا وجوهنا شطر لغة الإعلام بأنواعه، نلحظ أن استعمال اللغة فيه أصبح عشوائياً بحيث أضر بها ضرراً بليغاً، حيث أصبح استعمال اللهجات العامية فيها من الشائع المعروف.

اللغة والشخصية

يرى "فيخته" صاحب فلسفة "الإنية" أو "الذاتية" -وكلمة الإنية هذه لابن سينا- أن وجود أمة من الأمم بوجود إنيتها التي هي شخصيتها، وأن هذه الشخصية تتكون من عناصر ثلاثة: الدين، واللغة، وحب الوطن.

ويقول عن العنصر الديني: "إن تربية الشعب على التمسك بالدين والأخلاق هي أساس كل حكومة، وعلى الحكومة أن تؤسس معهداً دائماً لهذه التربية الدينية".

أما اللغة الأصيلة في نظر "فيخته" فهي: "رمز وجود الأمة، وبقدر أصالة اللغة والمحافظة على اللغة الأصيلة أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمة وشعباً أصيلاً أو مجرد أشتات فحسب".

والعنصر الثالث للشخصية وحياة الأمة، هو حب الوطن، يقول "فيخته": "فكما أن الدين هو العنصر الدائم لحياتنا الروحية... فإن حب الوطن هو العنصر الدائم والأساسي لحياتنا المدنية كمواطنين".[٩] وجاء في الأثر: "حب الوطن من الإيمان".

ومن هنا كانت اللغة الوطنية هي تلك اللغة التي تقبل من طرف الجميع كوسيلة للتبادل والاتصال الاجتماعي وكشعار خارجي لجنسيتهم. إن الأنظمة التربوية الوطنية باستعمالها اللغات الوطنية كوسيلة للتربية، تصنع في الميدان أقوى وسيلة لبناء تفكير الأجيال القادمة.

اللغة، حاملة للثقافة

أصبح الاهتمام بالطفل في الدول المتقدمة يحتل مركز الأولوية من الخطط والبرامج والاهتمامات على كل المستويات الوطنية والقومية، وأخذت تعنى عناية فائقة بتعليم الأطفال وتثقيفهم وتربيتهم من النواحي الصحية والنفسية والثقافية والاجتماعية والعقلية... وخطط الإنماء المبرمجة اقتصادياً واجتماعياً، تَعتبر برامج تنمية الأطفال جزءاً لا يتجزأ منها. وقد جاء هذا الاهتمام من قبل المجتمعات المتقدمة نتيجة إيمانهم بأن العناية بطفلٍ هي عناية بالإنسان والمستقبل، ويلعب الجانب الثقافي الدور الطبيعي في تحقيق الطموح نحو الغد المشرق.

وإذا كانت الثقافة هي الحصيلة المشتركة من الدين واللغة والمعرفة والعمل والفن والأدب والتراث والقيم والتقاليد والأخلاق والتاريخ والوجدان ومعايير العقل والسلوك وغيرها من مقومات، فإن اللغة هي أخص خصائص الثقافة؛ فهي من جهة تعتبر حاملا للثقافة، ومن جهة أخرى وسيلة للتفاهم بين الأفراد والجماعات. وهذا ما دفع بـ"إدوارد سابير" إلى اعتبار اللغة ظاهرة ثقافية، بل إن الثقافة نفسها هي في النهاية لغة.

ومن هذا المنطلق سيكون للعولمة دور في طمس التراث الثقافي الأصيل للأمة ومحاولة تشويهه، ولكي نواجه ذلك بفاعلية وجدوى، فلابد أن نبتدئ على مستوى الطفل بتنشئته تنشئة أصيلة تنمي فيه الاعتداد بالنفس والمقدرة على الإبداع والخلق والإشعاع، حتى يستطيع أن يقف من ذلك الغزو الثقافي المكثف بعد اجتيازه مرحلة الطفولة موقف المغربل الواعي، لا موقف المستهلك السلبي لما يرد عليه باستمرار من الخارج.

ويشكل الاهتمام بأدب الأطفال (شعراً وقصة...) اهتماماً بالجانب الثقافي للطفل. وأول اتصال للطفل بالأدب، يكون عن طريق الرواية الشفوية من لدن الأم والجدة لأغنيات المهد والقصص الشعبية وصولا إلى القراءة الذاتية في الكتاب. ■

(*) كلية الآداب والفنون، جامعة مستغانم / الجزائر.

الهوامش

(١) اكتساب اللغة العربية عند الطفل الجزائري، لحفيظة تازروتي، دار القصبة للنشر، ص:٧، الجزائر ٢٠٠٣.

(٢) ثقافة اللغة، للدكتور نبيل علي، عالم المعرفة، العدد: ٢٦٥/٢٠٠١، ص:٢٢٧-٢٢٨.

(٣) حول مفهوم الهوية، للدكتور محمود أمين العالم، مجلة العربي، العدد: ١٩٩٥/٤٣٧، ص:٢٦.

(٤) التربية اللغوية للطفل، لسرجيو سبيني، ترجمة: فزي عيسى وأخر، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩١، ص:٧.

(٥) أثر تربية الملجأ وتربية الأسرة على النمو اللغوي، لنادية بعيبع، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، العدد: ١٩٩٥/٣، ص:١٠٩.

(٦) مرجع سابق، لحفيظة تازروتي، ص:٩.

(٧) التربية والطابع الوطني، لزردومي امحمد، حوليات جامعة الجزائر، عدد خاص، ١٩٩٥-١٩٩٦، ص:٨٨.

(٨) أثر وسائل الإعلام على الطفل، للدكتور صالح ذياب هندي، جمعية المطابع، ص:١٧، ط١، الأردن ١٩٩٠.

(٩) المرجع السابع، مجلة الأصالة، ص:٥٤.



بالخير والجمال والصدق تحيا الفضيلة، وتورق شجرة الدنيا، وتزدهر القيم والمثل، وإن العالم سائر نحو هذه القيم عاجلاً أم آجلاً، ولا أحد يستطيع إعاقة سيره دون هذا الهدف المرموق..

***

الفتوى في عصر المؤسسات

د. باسم حسين عيتاني *

ضمن صيغة متفق عليها في هذا العصر أصبح العمل المؤسساتي عنوان العصر وسمته، ولا يُمكن للجهود الفردية والمتكاملة أن تُلبِّي قضايا المجتمع. فالتحديات الكبرى والأزمات التي نُواجهها في الحياة المعاصرة، والتركيبة المعقَّدة للمجتمعات والعلاقات، وتشابك المعاملات وتكثُّف الأزمات لا يُتصوَّر موضوعياً أن يفهمها أو يتصدى لها فرد، فيجدَ أجوبة على كل القضايا وكل المسائل الفكرية والاقتصادية والطبية والاجتماعية وغير ذلك.

إن الاجتهاد الجماعي الهادئ الواعي المدرك لأبعاد المرحلة ومقتضيات الواقع المعيش، خير من فتوى فرد ثائر لا يرى إلا من زاوية واحدة قد تصل إلى إضرار المجتمع أكثر من إصلاحه، وهدم إمكانيَّات البناء التي يلزم السعي إلى تنميتها.

هذان مساران واقعيَّان في مجتمعاتنا لمشروعٍ هدفه نهضة الإنسان والمجتمع، لكن لا يخفى أنَّ كلا المسارَين يُخالِف أحدهما الآخر. واختلاف المُنطلقات تورث اختلافاً منطقياً في النتائج.



ينبني على ذلك أن الاجتهاد الفردي غير قادر على معالجة القضايا الأساسية الكبرى، وربما تقع الأمة تحت تسلُّط رأي واحد أو اجتهاد فردي واستبداد بالرأي، خاصة فيما يتعلَّق بمصير الشعوب ومستقبل الأمة، والاستبداد في شريعتنا منبوذ ومرفوض. هذا لا يعني أن كل اجتهاد فردي أو فتوى فردية في إطار استبدادي، فإن كثيراً من الاجتهادات الفردية المستقلة جاءت عادلة ومحكمة، قاصدة لمصلحة، برفع ظلم أو ردِّ حقٍّ؛ ولكن الأفضل أن لا نجنح إلى الاستقلال بالرأي.

هنا، يظهر مقام الاجتهاد الجماعي حلاًّ لمشكلات معضلة ونوازل معقدة مستمرة، وهو عبارة عن مجلس فقهي شوري، ويعتبر تنظيمه من ضرورات العصر لملاحقة التطورات السريعة في الظروف الاجتماعية للأمة، ولإيجاد إجابات على التحديات المباشرة وإخراجها من أزماتها الواسعة فيها. وهذا يؤدي إلى إحياء الفقه الإسلامي بطريقة جماعية تعبِّر عن إرادة الأمة في النهضة التشريعية والثقافية. وهو:

المشروع الحضاري

ينطلق الاجتهاد الجماعي من الأرضية الإسلامية من قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾(الشورى:٣٨)، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(آل عمران:١٥٩). ونلحظ أن النصوص من الكتاب والسنة لم تعيِّن أسلوباً محدَّداً لأُطر الشورى، بل تركتها في محور متغيِّر يناسب كلَّ عصر بحسبه.

الاجتهاد الجماعي هو المشروع الذي يمكن بواسطته إنشاء مراكز للبحوث والدراسات على المستوى العلمي والإقليمي والعالمي، ويوظف طاقات المفكرين والمجتهدين دون إضاعة الجهود فيما يتعلق في تطوير أوضاع الأمة ونهوضها من سقطاتها، والخروج بالأمة من التخاذل الثقافي. فهذا المشروع الحضاري يستفيد من كل التقنيات الحديثة، ومن كل وسائل الاتصال والإعلام والمعلومات، لتحقق الإحاطة البشرية على المستوى الداخلي والخارجي والمحلي والعالمي.

الاجتهاد الجماعي يوصل إلى التعددية وإمكانية الاختلاف الفقهي والنقاش المتفاعل وقبول الرأي الآخر واحترامه، ويجيز القضية الاختلافية التي جعل الشارع لها سماحة واسعة في الاجتهاد الشرعي.

فالرؤية الجماعية لحل المشاكل واستخراج الأحكام، توصل إلى جمع الكلمة ورأب الصدع وتوحيد الصف وإن اختلفت الآراء في المجالس الفقهية، ولكن المطاف الأخير يؤدي إلى الأخذ بقول الأغلبية الذي يمثِّل الخط الأغلبي للأمة أو الخط الكلي بسبب انتشاره وتأثيره على أفراد الأمة، بخلاف الرؤية الفردية التي قد تؤدي إلى الفوضى التشريعية، حيث تتشعب الآراء وتختلف الأنظار وتزداد الاختلافات، مما يؤدي إلى تفرق الأمة وتمزيقها بدل وحدتها. وهذا لا يعني أننا نرفض الاختلاف، بل هو أمر واقع لا يتجاهل، ولكن نريد تنظيم هذا الاختلاف ضمن أطر تعود مصلحته إلى الأمة، لتقريب وجهات النظر ولاتحاد الرؤية بعد ذلك.

إن الاجتهاد الجماعي أمر يتعدى حالة الفرد وقضيته الخاصة إلى حالة المجتمع والأمة وقضاياها. فالموضوع الذي يُطرح على الفريق الفقهي يناقَش من كل الوجوه ومن كل الزوايا، وكل باحث يأتي من نافذة لم يأت منها الآخر، ويتعمَّق البحث وتُعرض الأدلة والآراء وتقلَّب وتمحَّص، ويغدو البحث أكثر إثراء، ويتركَّز البحث ولا يخرج عن الموضوع وتوضع النقاط والمقدمات والنتائج، وتظهر أدلة الأقوى.

هذا المنهج القويم والسليم، اتبعه الملهم عمر الفاروق ﷺ. كان إذا وقعت نازلة ليس فيها نص عن الله ﷻ ولا عن رسوله ﷺ، جمع لها أصحاب رسول الله ﷺ ثم جعلها شورى بينهم. وكان يأمر أتباعه أن يتمثَّلوا هذا المنهج، فكان مما كتبه للقاضي شُريح: "إن أتاك ما ليس في كتاب الله، ولم يسنَّه رسول الله، فاقض بما أجمع عليه الناس". هو اجتهاد منضبِط يتكوَّن من كبار فقهاء الأمة، تتوفَّر فيهم شروط البحث ودرجة الاجتهاد الوسطى.

إن العصر المعيش هو عصر المؤسسات، فإنه لا ينفع فيه الجهود الفردية التي لا تتكامل ولا تتناسق مع الغير. والنزوع الفردي لا يؤدي إلا إلى ظاهرة فردية مبعثرة يفوتها الخير الكثير. فينبغي تنمية الشعور بعمل مؤسسي لبناء مؤسسات اجتهادية جماعية وتنمية المسؤولية تجاهه. والإقدام على الاجتهاد الجماعي شعور متقدِّم في أهمية العمل الجماعي، لأنه ينبثق من خلال البركة المنظورة في النص الشريف: "يد الله مع الجماعة" (رواه البخاري).

أخيراً، يشكِّل الاجتهاد الجماعي محوراً فعالاً في الإنتاج الفكري الحضاري الذي يعتبَر غاية في الأهمية، ويُمثِّل القاعدة لوحدة الأمة المفقودة، ويعطي رؤية مستقبلية واضحة. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة بيروت الإسلامية / لبنان.



روح حراء وفقه المرحلة

الشيخ حمدا ولد التاه *

لقد طالعت بإمعان وتأن مجلة "حراء" العلمية الثقافية، وأعجبت بعنوانها وموضوعاتها التي كتبت فيها، ونوعية الأقلام التي شاركت فيها، فقادني ذلك إلى مرجعين تاريخيين عظيمين.

أما المرجع الأول فهو اسم المجلة "حراء"... فقد كان اختيار هذا الاسم ينبع من ذلك المكان المقدس الذي كان أول مكان لامست فيه السماءُ الأرضَ، وتلقى فيه محمد ﷺ الدرس الأول من الرسالة... تذكرت تلك الكلمة العظيمة التي رددها الروح الأمين على قلب وسمع محمد ﷺ: ﴿اقْرَأْ﴾... تذكرت ذلك الحادث العظيم الذي انبثقت منه رسالةٌ من عنان السماء إلى مشارق الأرض ومغاربها... تذكرت تلك الضمة الروحية التربوية التي ضم بها جبريل الروح الأمين محمدا ﷺ... تذكرت تلك الساعة الرهيبة التي رجع فيها إلى زوجه الكريمة خديجة بنت خويلد وهو يقول: "زملوني زملوني"... وتذكرت تلك الكلمات اللطيفة الودية المهدئة التي قالت له فيها: "واللهِ لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لَتصل الرحم وتحمل الكلّ وتعين على نوائب الخير"... وتذكرت ذلك الشيخ المسن الخبير بالأديان ورقة بن نوفل وهو يستمع لمحمد ﷺ وهو يقص عليه ما رأى وما سمع والشيخ يقول: "هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ليتني فيها جذعا إذ يخرجك قومك".

تذكرت بعد ذلك أصداء هذه الرسالة التي وصلت إلى هرقل وكسرى والمقوقس والنجاشي وغيرهم من ملوك الدنيا، ولم تقف عند تلك الحدود، بل وصلت إلى الجن وهم يستمعون، ووصلت إلى العالم الأعلى وهم يستقبلون محمدا ﷺ ليلة الإسراء والمعراج وهم يرحبون به، ويؤمهم في بيت المقدس ويتابع إسراءه... تذكرت تلك الوقفات العظيمة التي واجه بها قريشاً وهم يعرضون عليه مختلف الحلول للتخلي عن الرسالة وهو يقول: "والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما كنت لأفعل حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

تذكرت ذلك الموقف الرهيب الذي دبرت فيه المؤامرة لكنها تفشل، ويصل ﷺ رسولا مبلغاً وقائداً مظفراً... تذكرت ذلك



الموقف العظيم الذي فتح فيه مكة وقال لقريش وهم لا يدرون ماذا سيفعل بهم: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"... تذكرت كل تلك الوقفات وأنا أنظر إلى كلمة "حراء" تحمل كل هذه المعاني...

وهنا وصلت إلى الذكرى الثانية، وتذكرت تلك الدولة العظيمة التي لا تغرب عنها الشمس، والتي نشرت الإسلام في مختلف أقطار الدنيا؛ إنها الدولة العثمانية التي كانت عاصمتها هي مصدر هذه المجلة... وهنا تذكرت عظمة هذه الدولة وما تركته من حضارة وعمران في آسيا وأوربا، والتي هزت عظمتُها مختلف العروش فنشرت عزة الإسلام وأعادت إليه مكانته العظيمة.

واليوم ها هي تلك الأمة العظيمة التي انطلقت منها الجيوش والأساطيل الإسلامية، ها هي اليوم تصدر منها مجلة "حراء" لتعلن للدنيا أنها إذا كانت فتحت البلاد بالقوة فإنها اليوم تفتحها بالفكر والحكمة والموعظة الحسنة عن طريق هذه المجلة، وعن طريق ما تقدمه أمة الخير من دعم وعون للهيئات الإسلامية الأخرى، لتواجه بذلك الحملات المدمرة التي انتشرت في أقطار الإسلام، وأصبحت تغزوه بوسائل الصحة والتغذية وغيرها... فقد أدركت الهيئات الإسلامية في تركيا أن التحديات ذات ألوان وذات وسائل مختلفة، ومن هنا فقد بدأت تواجه هذا الغزو الحضاري المدعم بالتكنولوجيا والمال.

وهنا فإنني أذكر بأننا نحن المسلمين لن ننتصر ما لم نستعمل سلاحين اثنين؛ أما السلاح الأول فهو الإيمان الذي بدأ يضعف في نفوس أصحابه، وأما السلاح الثاني فهو الأخذ بالأسباب العلمية والتكنولوجية... وإذا كان السلاح الأول يوجد عندنا ولا يوجد عند الآخر، فإن درجة قوته قد انحطت... فلابد أن نضع برامج تربوية وثقافية وتوجيهية واقتصادية لتقوية الإيمان في نفوس المؤمنين، كما أنه علينا أن نأخذ بأسباب العلم والتكنولوجيا، وأن نوجه شبابنا إلى هذا الاتجاه المزدوج بين الإيمان والعلم، وبذلك وحده نعيد عزتنا ومجدنا... وهذه المهمة تقتضي منا أن نراجع مناهجنا التربوية والثقافية والإعلامية حتى تكون على مستوى الحدث، كما أنه علينا أن نوحد الصف الإسلامي ونبتعد عن كل ما يفرقه، وأن نضع الخطوط العريضة المتفق عليها بيننا بعيداً عن النظرة الضيقة أو الإقصائية... فلماذا نفترق وربنا واحد وديننا واحد ونبينا واحد؟ ولماذا نضعف عن الحق ويقوى الخصم على الباطل؟

وهذا في رأيي يقتضي أن نصلح الداخل ونوحد الصف ونقبل من الخير أقله ومن الشر أخفه، وأن نقدم خطة تأخذ بما يعرف بفقه المرحلة. فحياة النبي ﷺ كانت صورة ورسماً وخطاً بيانياً لما ستعيشه أمته من بعده؛ عاش في دار الأرقم بن الأرقم وفي بطحاء مكة يوم نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ فانهالت جاهلية قريش عليه، فوجه أصحابه إلى ملك لا يظلم الناس عنده "النجاشي"، وعاش يوم وصل المدينة ليؤسس دولة الإسلام الأولى وكان من بينها المشركون واليهود والمنافقون، وعاش يومَ الحديبية حيث جرى الحوار بينه مع سهيل بن عمرو وهو يقول: لا نعرف باسم الله الرحمن الرحيم بل اكتب: باسمك اللهم، ولا تكتب محمد رسول الله بل اكتب: محمد بن عبد الله"، وتأتي شروط الوثيقة وهي تحمل ذلك البند الصعب: "أن من جاء إلى المسلمين من قريش يُرَدّ إلى قريش"، ولكن بُعد النظر المدعوم بالغيب والوحي كان ينظر من وراء هذه الوثيقة إلى يوم الفتح الأكبر.

كما عاش ﷺ يوم الفتح الأكبر وهو يقرأ القرآن على ناقته ويعلن تحرير قريش من تبعات الماضي، كما عاش ﷺ يوم عرفة بعرفات وهو يعلن ذلك الإعلان الكبير الذي يرسم حقاً من حقوق الإنسان منذ أربعة عشرة قرنا: "إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا هل بلغت، اللهم فاشهد".

فهذه النماذج من حياته ﷺ ترسم بشكل واضح ما ستعيشه أمته من بعده... والسؤال المطروح الذي يمكن أن نستلهم منه إستراتيجية العمل وفقه المرحلة: أين نحن اليوم؟ فهل نحن في بطحاء مكة بعد بيان الصفا أو في مهجر الحبشة أو في يوم الحديبية أو في يوم الفتح؟ أم إننا في دار الأرقم بن الأرقم؟ ذلك سؤال آخر يستحق الدراسة والتأمل والتفكير.

كما أن هناك سؤالا آخر حول إحصاء المسلمين، فإذا كنا نعلن أن المسلمين قد وصل عددهم إلى ما يزيد على المليار والنصف مليار، وأن المسلمين في بعض الأقطار بنسبة كذا... فما هي نسبة الإسلام في المسلم، نسبته في الامتثال، نسبته في الانتهاء؟

وفي الأخير أرجو لمجلة "حراء" أن تظل نبراساً مضيئاً كما كان "حراء" مصدر النور المحمدي ومنطق الرسالة العظمى على صاحبها أفضل الصلاة والسلام. ■

(*) الأمين العام لرابطة العلماء الموريتانيين / موريتانيا.

"حراء"
تفاعل المبنى والمعنى

د. محمد حسان الطيان *

جـذوة متوقـدة في دنيـا الإعلام الإسـلامي، أدرك القائمون عليها أهمية الجمع بين الشكل والمضمـون وبيـن المبنى والمعنـى، فجاءت تحفةً فنيةً تضم أطايبَ الكلام وأفانينَ الفكر والعلم والمعرفة.

ما تَقَعُ العَينُ مِنها حينَ تَلحَظُها** إلاّ عَلى فِتنَةٍ مِن أَجملِ الفِتَنِ

إن مـن يتصفـح مجلـة "حـراء" يشـعر منذ النظـرة الأولى أنـه أمام نـوع مختلف من أنواع المجـلات، رُصدت له أعظم الإمكانات، وحُشدت فيه أرقى التقنيات الفنية وأكثرها إحكاماً وإبداعاً، بدءً من نوعية الورق ومروراً بتناسـق الألوان وانتهاءً بروعة الإخراج.

فـإذا مضى فـي قـراءة مقالاتها وتنقـل بين عقـول كاتبيها ومبدعيها، أدرك أيّ فكـر راقٍ تشـتمل عليه هـذه الإضمامة، وأيّ أدب رفيـع يقطر من يـراع كاتبيها، وأيّ علم غزير يتفجر من سلسالها... وسرعان ما يتبدى له أنها مجلة استوفت معايير الجودة، وبلغت أمد الغاية إتقاناً وإخراجاً وفكراً ومعرفة ورفعة وأدباً. ولا غرو فقد تناوشتها أقلامٌ قلما اجتمعت في مجلة!..

فمـن معقلهـا في تركيا يطل علينا "فتـح الله كولن" المفكر الشـاعر والكاتـب المبدع بفيوضاتـه وفتوحاته، ومـن جارتها سـوريا يلقانا الأسـتاذ الدكتور "محمد سعيد رمضان البوطي" بفكـره وقلبـه، ومـن أرض الكنانـة تتبـدى لنا آيـات الإعجاز العلمـي فـي مقـالات الأسـتاذ الدكتـور "زغلـول النجـار"، ويتفجـر الفكر الأصيل فـي مباحث الأسـتاذ الدكتور "محمد عمارة"، وتسـمو الـروح ويتوقد الوجدان مع سـماحة المفتي الدكتـور "علي جمعة"، ومن أقاصي المغرب يطالعنا الأسـتاذ الدكتور "الشـاهد البوشـيخي" بنصاعة أسـلوبه وغزارة علمه، ومن الأردن تحلق بنا الشـاعرة "نبيلة الخطيب" في عالم شعر يلامس القلوب والأرواح قبل الأنظار والأسماع، ومن العراق الجريح -فرج الله كربته- يتحفنا الأستاذ الدكتور "عماد الدين خليل" برؤاه العميقة في التاريخ والأدب.

ومن الجزائر وماليزيا، ومن اليمن وفلسطين، بل من كل صقع عربي وإسلامي، تستقطب "حراء" أروع الأقلام وأبدع الأفكار وأحلى الكلام في مشكاة تمتزج بأجزاء النفس لطافةً، وبالهواء رقةً، وبالماء عذوبةً، وبالنغم العلوي الأصيل إيقاعاً وجرسـاً.

إنهـا الكلمـة الطيبة تؤتـي أكلها في أبهـى صورها وأزكى حالاتها ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۞ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾(إبراهيم:٢٤-٢٥).

فليهنِكـم يـا مـن تقومـون علـى هـذا الصـرح الإعلامي الإسـلامي إنتاجكم.. وليهنِكم ما قدمت أيديكم.. وليهنِكم ما أثمرت قرائحكم في هذه المجلة.

ليهنِكم ما تخيّرتم من اسـمها "حراء" مبعث النور والهداية والصفاء.. وليهنكم ما صنعتم في شكلها ووصفها حتى غدت أمثولـة للحسـن والبهـاء.. وليهنكم ما اسـتقطبتم لها من بارع الكتّـاب والشـعراء حتى تفردت بأجمل العطـاء.. وليهنكم ما حققتـم بها وفيها من تألق ونجاح حتى غدت نبراسـاً للإعلام الإسلامي المعاصر..

وليهننـا معشـر القراء أن فزنا بها، وإنهـا وايم الحق لمغنم عظيـم. ولا يسـعني في الختـام إلا أن أتوجّه إلـى كل من قام عليها بقول أمير الشعراء:

إِنَّ القُلوبَ وَأَنتَ مِلءُ صَميمِها** رفعَت تَهانيها مِنَ الأَعماقِ. ■

(*) منسق مقررات اللغة العربية بالجامعة العربية المفتوحة / سوريا.



الحمامة والشِباك

مسكينة أنتِ...
في شبكة الصيّاد سقطتِ...
يا ذات الجناح الكسير...
يا ذات الحلم الرَفّاف...
يا غَرَّارة...
بضعفكِ اغتررتِ...
فما الشبكة تقحّمتِ،
ولا من بين خيوطها مَرَقْتِ...
مثلي تماماً فتهاويتِ...
فقلبكِ الصغير من خوفه يكاد يطير وصدرَك يغادر...

تركيا: ٥ ليرات • أوروبا: ٣ يورو • أمريكا: ٤,٥ دولار

